رواية

سعادة للإيجار

نسيبة المرابطي

سعادة للإيجار

نسيبة المرابطي

إهـداء

إلى كل من يحب القراءة والكتابة، وإلى كل من يعشق الغوص في بحر الكلمات والأفكار، وينغمس في عالم الأحرف والسطور

أهـديـكـم عـمـلـي المـتـواضـع

2006

في قلب المدينة الصاخبة، وضوضاء السيارات والحافلات، والدخان المتصاعد من المداخن، حيث يمتلئ المكان بأحاديث الناس وضحكاتهم. هناك يتواجد مبنى قديما يحمل أثر الزمن والحكايات القديمة، كان ذلك المبنى يعج بأشباح من الماضي، ولكنه كان أيضا موطنا للسعادة المفقودة.

في ذلك المبنى كانت هناك شقة صغيرة تحمل عنوان "سعادة للإيجار"، وهو مكان غامض يجذب الناس من جميع أنحاء المدينة، يقال إن كل من يسكن تلك الشقة يجد نفسه محاطا بالسعادة والفرح، لكن لم يتمكن أحد من دخول تلك الشقة لكونها سحرية ومقر للأشباح.

سعد، شاب في الثلاثينات من عمره يعمل مساعدا في مستشفى الأمراض العقلية، فقد السعادة بعد وفاة أبويه في حادث سير خطير منذ خمس سنوات، وأصبح مكتئبا وغامض الشخصية، يبحث عن شقة تناسب شخصيته ووضعه المادي وتكون قريبة من مقر عمله.

دخل سعد المقهى لتناول فطور الصباح، حيث سمع مجموعة من الرجال يتحدثون عن شقة "سعادة للإيجار"، فدخل معهم في حوار ليتعرف أكثر عن تلك الشقة، وكانت ردودهم تقريبا متشابهة، هناك من قال أن تلك الشقة مكان غامض ومخيف مليء بالأشباح يجعل ساكنه ينعم بسعادة غير طبيعية، لكن ما يخيف العالم هو الأمور الغريبة التي تحدث فيه، وهناك من نكر السعادة وقال عنها هراء، لكن سعد ولأنه شاب طموح وشجاع قرر الانطلاق الى ساحة المعركة وهو يحمل الحزم والعزيمة القوية والرغبة الجامحة لتحقيق أهم حلم من أحلامه، أن يستأجر تلك الشقة ليجد السعادة الضائعة التي بحث عنها طيلة الخمس سنوات الماضية.

اتفق سعد مع صاحب الشقة، واستأجرها بثمن بخس على أن يكمل بقية حياته فيها. صعد سعد الدرج ولم يجد الغرابة التي تحدث عنها العالم، فقط ما لاحظه هو كثرة الغبار وشبكات العناكب الموجودة في زوايا السقف. تتواجد الشقة في الطابق الثالث من المبنى وهو الطابق الأخير، أما بالنسبة للطابقين الأول والثاني فهما شاغرين منذ أكثر من عشر سنوات. هناك على باب الشقة لافتة كبيرة مكتوب عليها "سعادة للإيجار"، فتح سعد الباب وتفاجئ بالمنظر الذي كانت عليه، إنها شقة صغيرة غارقة في السواد، الأثاث والحيطان والأراضي كلها ملونة باللون الأسود. استقبله عند الباب بهو صغير فيه أريكتين من الجلد وطاولة صغيرة في زاويته، ومطبخ صغير وغرفة تتواجد فيها خزانة ملابس وسرير للنوم، لم تكن الشقة متسخة مثل الدرج، بل كانت نظيفة ومعطرة، هذا ليجعل مستأجرها لا يغادرها بسهولة، خاصة شخص مثل سعد يحب النظافة والاناقة. لكن الغريب في الأمر أن الغرفة تحتوي على بوابتين، الأولى للحمام والأخرى لأغرب مكان في الشقة، هذا الأخير كان بحجم

الحمام بل ومتقابلين أيضا، مليء بالصناديق من جهة النافذة، وفيه عبارات كثيرة باللون الأبيض على الحائط الأسود، منها "عش من اجل السعادة" و"ستجد السعادة التي تبحث عنها"... بالإضافة الى طائر البجع المرسوم بجانب العبارات، وهو طائر نادر يعتبر رمزا للجمال والاناقة، ويرتبط ارتباطا وثيقا بالسعادة والفرح في العديد من الثقافات والتقاليد.

كان سعد يشعر بالتعب والارهاق مما جعله ينام فور اكتشافه للشقة دون التفكير لا في السعادة ولا في الأشباح، أغمض عينيه وغرق في نوم عميق. إنها ليلة الاثنين، الغد يعتبر يوم شاق بالنسبة لسعد، حيث أن عمله في مشفى الأمراض العقلية كان متعبا ومرهقا، قرر الاشتغال هناك بسبب فقره وعدم إيجاد عمل مناسب له على حسب التخصص الذي درسه، حيث أنه درس تخصص القانون ويحلم بمزاولة مهنة المحاماة.

في هدوء الليل، على نسيم الهواء الطلق الذي يدخل عبر نافذة الغرفة، استيقظ سعد على صوت غريب في

المطبخ، كصوت الأواني وهي تضرب بحوض الغسيل، حاول سعد الدخول الى المطبخ ليعرف مصدر ذلك الصوت، ولم يجد أي شيء يدعو للخوف منه، ولأنه كان في غاية التعب لم يبالي بالأمر واستمر في النوم. في الصباح الباكر حيث تعود سعد على الاستيقاظ دائما، دخل الى المطبخ لشرب كوب ماء قبل ذهابه، وجد المطبخ في حالة فوضى، الأراضي كلها غارقة في الماء، والأواني موزعة في كل الاتجاهات مع خدوش في الحيطان، كان سعد في حالة ذهول هذه المرة، فحدوث كل هذا في الليلة الأولى لم يكن بالأمر الطبيعي، رغم ذلك تخطى كل شيء وذهب للعمل، وهناك في المستشفى التقى بزملائه وأخبرهم عن القصة، الكل يعطي رأيه بشان الشقة، هناك من نصحه بإكمال المغامرة ومن نصحه بالرحيل، وهذه الفكرة التي لم تدخل عقل سعد، كان من الصعب عليه ان يتخلى عنها وهو في بداية الطريق للبحث عن السعادة الضائعة، أن يتخلى عن كل شيء ويعيش في دوامة الكآبة، لكنه من حين لآخر كان يشعر بالخوف

تجاه المستقبل، هل سيضيع وقته من أجل لا شيء؟ هذا ما سيكشفه لنا الزمن.

كان اليوم متعبا بالنسبة لسعد، فما عاشه الليلة الماضية كان كابوسا ينتظر الاستيقاظ منه، وطائر البجع أخذه الى تفكير عميق. ما سر هذا الطائر؟ وما علاقته بشقة "سعادة للإيجار"؟ هذا ما كان يفكر فيه سعد طيلة الليلة.

في وادي السعادة حيث تلتقي طيور البجع ببعضها البعض بعد فراق طويل، لخوض مغامرة في البحث عن السعادة ونشرها في كل أرجاء العالم، هناك شيخ كبير هزيل الجسم، يلبس قميص بيد واحدة، وعلى يده الأخرى وشم كبير لطائر البجع، يجلس على ضفة الواد وتتلامس أقدامه الماء، وضع يده اليمنى على صدره ويده الأخرى يمسك بها يد الشاب سعد، خاطبه بكلام مثير والدموع تتساقط من عينيه الصغيرتين وتسير بسرعة قصوى على خديه المليئة بالتجاعيد "وادي السعادة هو الواد الذي يغذي الروح وينعش القلب، سمي بهذا الاسم لكثرة تواجد طيور البجع فيه، وإن استطعت أن تجتاز وادي المواجهة فإنك بالأخير ستصل الى

وادي السعادة وستصبح مثل هذه الطيور، والبحث عن السعادة هو مشوار متعب وشاق، لن تستطيع الوصول الى السعادة ما دمت لا تعرف قيمتها". لم يترك الشيخ فرصة لسعد لفهم ما معنى وادي المواجهة، وهل حقا يستطيع تجاوزه؟

بعد الاستيقاظ أدرك سعد أن كل ما حدث كان مجرد حلم، الشيخ، وطائر البجع وحتى وادي السعادة والمواجهة لم يكونوا في الحياة الواقعية، واستيعابه لكل تلك الأمور لم يكن بالأمر السهل، مما زاد غموضه أكثر، بينما كان الليلة الماضية يسعى لفهم طائر البجع وعلاقته بالشقة "سعادة للإيجار" زادت أحداث القصة وأصبح الأمر بالنسبة له كتقبله فكرة أنه يشتغل في مستشفى الأمراض العقلية.

تأثير الشيخ في حياة سعد بعد الحلم بدأ من الان، لم يتمكن من طرده من مخيلته، فقد كان كطيف غير مرئي امام عينيه، إلى أن وصل سعد إلى نهاية الطريق، بحيث قرر الرحيل والابتعاد عن تلك الشقة الغامضة بل والابتعاد عن المدينة بأكملها. حين كان يجهز متاعه من أجل الرحيل سمع صوت

دقات على الباب، والغريب في الأمر أنه منذ استئجاره للشقة لم يطرق أحد بابه، حتى من زملائه كانوا يخافون من ذلك، أسرع سعد بخطوات يكاد يتعثر في مشيته لفتح الباب، والمفاجأة انه كان طفلاً صغيراً لا يبلغ من العمر ست سنوات، قبل أن يلفظ سعد بأي كلمة تحدث الطفل: "إذا كان حلمك يهمك فلا تستسلم، قد يكون الاستسلام خطأ ترتكبه، وقد يكون الخوف سبب ارتكابك هذا الخطأ، لكن تذكر دائما أننا لم نولد كي نكون جبناء" وكانت جملته الأخيرة هي: "ستحصل على السعادة التي تريدها، لكن الأمر يستلزم منك الانتظار". تجمد سعد في مكانه ولم يستطع الحركة، هل يعقل أن يكون الطفل هو جزء من مفاجآت هذه الشقة؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي يدور في رأس سعد. بعدما أغلق الباب ظل يفكر فيما سيفعله، يحاول جمع الأحداث وفهم مضمونه، غالباً الطفل كان يقصد بالاستسلام والخوف أن سعد يريد التخلي عن حلمه فقط بسبب خوفه من ذلك الشيخ، صحيح أنه كان يود الرحيل، لكن كلام الطفل حسن من

معنوياته وقرر البقاء، فقط لأن السعادة بالنسبة له كل شيء.

سعد هو المساعد المناوب هذه الليلة، بحيث يبقى ساهراً يراقب المجانين والحمقى، لم يكن الأمر سهلا وهو يفكر في الشيخ والطفل وطائر البجع، لكنه تارة يشعر بإحساس غريب، أنه في يوم ما سيكون سعيدا في حياته وسيتخلص من كل الأمور التي تزعجه، وبداية من مشفى الأمراض العقلية.

صوت الطبيب وهو ينادي لسعد يسمع من خارج المصحة.
استيقظ سعد وهو في غرفة الأدوية ماسكا بيده أكياس ورقية عليها علامات الصيدلة، وفجأة يفتح الباب:

-"ما الذي تفعله هنا يا سعد، الم أرسلك الى غرفة المريض مصطفى"
قال هذا الطبيب وهو يشتعل غضباً، قام سعد من الكرسي حاملاً تلك الأكياس قاصداً الغرفة ثلاثة، بتصرفات غريبة خاطب ذلك المجنون قائلا:

-"ما هي السعادة بالنسبة لك؟"

وكان رده كما يلي:

-"السعادة هو ان أخرج من هذه المصحة وأنتقم للأطباء الذين احتجزوني هنا وأعدك أنك ستكون منهم"

تفاجأ سعد من رد ذلك المجنون، فناوله الدواء وخرج مسرعاً إلى غرفة المساعدين.

كانت الساعة تشير الى الثامنة صباحا، حيث يعود سعد من العمل متعبا ومنهكا، لكن هذه المرة بمعلومة جديدة، اكتشف أن السعادة ليس لها مفهوم خاص، فالسعادة تختلف من شخص لآخر، على حسب القيود التي تحاصر الشخص ورغباته في الحياة وقدرته في مواجهة الصعاب، لكن هل يمكن ان يكون هذا المفهوم صحيحا للسعادة، أم له مدلول اخر؟

في هدوء الليل وصمته العميق، تنبعث أصوات غريبة من المطبخ المجاور لغرفة سعد، مثل همسات أشباح تائهة تلتفت حول الأذن، او أصوات أثاث تتحرك من تلقاء نفسها... الأضواء تنقطع وتتلاشى، والأصوات تزداد شيئا فشيئا مثل

الألعاب النارية وهي تنفجر في السماء، ويبدأ الخيال بصيانة أسوأ السيناريوهات في عقل سعد، لحظات كهذه تربط بين الواقع والخيال، وهذا ما أثار الرهبة والقلق في جسده النحيل. وجد سعد نفسه متجمداً في المطبخ، وهو يستمع للأصوات الغريبة التي تتصاعد من الزوايا المظلمة، صوت دقات قلبه تسمع كصوت عقارب الساعة، وعيناه الصغيرتان اصبحتا بحجم صخرة كبيرة، وكأن الزمن توقف في مكانه. الصدمة أغرقته في بحر لا متناه من الأفكار والتساؤلات حول ما إذا كانت هذه الأصوات حقيقية أم مجرد تخيلات، لكن ومع كل صوت جديد، تصاعدت معه الصدمة والخوف في داخله، كأنه يعيش كابوسا مرعبا لا يستطيع الاستيقاظ منه. وتأكد بعد لحظات أنه يعيش في شقة مليئة بالأشباح، وصدق ما كان يتحدث عنه الناس، رغم خوفه الشديد لم يفكر ولو للحظة بالتخلي عنها ولو ليوم واحد، أحس أنه سيصل يوما ما لهدفه، الذي يجعله يستمر في طريقه ولو كان قاسيا وصعباً. ظلت الاشباح تطارده كل يوم في الليل محدثة أصواتا منها، ومرة سمع أن أحداً ما يتحدث إليه، فقد تحول من إنسان واحد الى

صديق للأشباح، صحيح أنه في البداية كان يخاف منهم، لكن بعد التكرار اليومي للحدث جعله إنسانا لا يتأثر من تلك المواقف. بين ليلة وضحاها تحولت حياة سعد المكتئبة والحزينة الى أكثر من ذلك، في البداية فقد عمله كمساعد في مستشفى الأمراض العقلية، بالإضافة الى أنه فقد أصدقائه نظراً لتصرفاته الغريبة بعد أحداثه الأخيرة، ومن كثرة الأصوات المزعجة التي تحدثها الأشباح أصبح الناس في الخارج يتحدثون عنه بالسوء، ويشتكون منه بأنه لا يدع أطفالهم ينامون في الليل، والكل يشتمه حين يخرج من الشقة، حتى وصل الى حالة نفسية غير طبيعية، وأصبح لا يخرج من الشقة خوفا من كلام العالم. كانت حياته عبارة عن كابوس مخيف يراوده كل صباح، كلما استيقظ من النوم يعيش نفس الأحداث وأكثر من ذلك، لم يعد له عمل ولا أصدقاء يقاسمونه الألم، بل ظلت معه شقته الوحيدة التي لم يدفع سومتها منذ شهرين، لولا لطف صاحبها لما استطاع البقاء فيها ولو ليوم واحد، كلما ذهب إليه ليعتذر له عن عدم دفعه للإيجار رده الرجل بتفهم وبلطافة أكثر. بعد الروتين

الممل الذي يعيشه سعد كل يوم قرر وأخيرا فتح صندوق من الصناديق الموجودة في المكان العجيب في غرفته، تلك الغرفة الصغيرة المقابلة للحمام. لم يدخل إلى ذلك المكان منذ زمن طويل، ولم يرى ذلك الطائر المرسوم على الحائط ولا العبارات المكتوبة باللون الأبيض. وهناك تذكر أول يوم له في الشقة، عندما كان يكتشفها بكل حماس، عندما استوقفته العبارات، وتأمل في طائر البجع، واستفسر عن الصناديق، واليوم هو اليوم المناسب ليعرف ما الذي تحتويه. كانت الصناديق مرتبة واحدة على الأخرى، وكان صعبا عليه أن يختار صندوقا من بين كل الصناديق، فتأملها بعمق إلى أن التقط أعلى صندوق وأخرجه الى غرفته، كان الغبار يغطي كل سطحه، فتحه بلطف شديد والمفاجأة أنه كان مليء بأشياء كثيرة بدون منفعة، أول شيء استخرجه هو لعبة للأطفال وهي عبارة عن كرة صغيرة مطاطية بداخلها أحجار تصدر أصواتا غريبة حين تحركها، ومعروفة عندنا أنها لعبة تنوم الأطفال الصغار، والكثير من الأوراق مرسومة عليها طيور البجع، وسحب في الأخير شيئا ملفوفا بقطعة قماش أبيض

تتناثر عليه ورود تتوسطها حبات اللؤلؤ، كان كتابا بحجم دفتر صغير قد اصفرت أطراف أوراقه لكثرة السنين التي عاشها، عليه عنوان كبير وعريض باللون الذهبي وهو "طائر البجع"، فتح سعد الكتاب وبدأ يتأمل كل صفحة، وكان عبارة عن أقوال أناس عاشوا في زمن ما في شقة "سعادة للإيجار"، استوقفته كلمات مثيرة عنوانها "المال لا يصنع السعادة" وكان النص كما يلي:

"الحياة عبارة عن قطار يسير بسرعة قصوى، وعندما نبلغ المحطة تنتهي كل الآمال والأحلام، بل وتذهب أرواحنا إلى حيث لا ندري، كانت طفولتي عبارة عن كابوس مزعج ومخيف تمنيت الاستيقاظ منه يوما، كنت أرى أمي تواجه الحياة من أجل أن توفر لنا لقمة ننجو بها من الموت الذي كان يهددنا يوما بعد يوم، في البداية كانت أمي تعمل كخادمة في بيوت الناس، وانتهى عملها حين اتهمتها امرأة بالسرقة، فأصبح الناس يخافون أن تدخل منازلهم، كنا نموت بالجوع وأمي تنظر إلينا ولا تستطيع فعل أي شيء، عندها هاجرنا الى مدينة كبيرة لعل أمي تجد عملا ما، وفي الحقيقة أنني

أيضا أصبحت أعمل في المقهى أغسل الاواني يوما كاملا ولا أعود الى المنزل إلا في الأوقات المتأخرة من الليل، لكن للأسف كان أخي الصغير قد مرض منذ زمن طويل ونحن لم نلاحظ ذلك، وحتى في الفترات الأخيرة لم نستطع أن نعالجه لقلة المال عندنا، ولذلك قررت الاشتغال لعلي أستطيع أن أساعده ولو بدراهم قليلة. في يوم عاصف وممطر من أيام فصل الشتاء عدت من عملي في وقت متأخر كالعادة، ووجدت باب منزلنا يعج بالناس منهم جيران ومنهم أشخاص لا أعرفهم، عندما دخلت المنزل وجدت أمي قد نشفت الدموع على خديها، واحمرت عيناها بكاء، وسقطت انهيارا، ولا تجد من الحسرة ما تفعل... مات أخي، ذهب قوة عيني...

بعد الفاجعة التي عشتها بسبب فقدان أخي، أصبح كل العمل علي، فقد انهارت أمي وحملت نفسها مسؤولية ما حدث، كنا نعتقد أننا إذا كنا أغنياء لما مات أخي، لكن الحقيقة مختلفة تماما. بعد أشهر كثيرة أو بالأحرى بعد أعوام، استطعنا ان نغير حياتنا الى الأفضل، بسبب العمل المستمر لم نعد فقراء، أصبح لنا منزل كبير ودافئ، وأصبح لأمي عمل مشرف في

شركة للسيارات، أما أنا فقد تحقق حلمي وأصبحت مدرسا، أستطيع القول إننا أصبحنا أناسا أغنياء، لكننا لحد الان لسنا سعداء بما يكفي، عندما كنت صغيرا كنت دائما أقول بأن المال يصنع السعادة، لكن بعدما كبرت وأصبحت أملك من المال ما يكفي اكتشفت أنني كنت مخطئا في ذلك... المال لا يصنع السعادة بل يكمل السعادة"

أغلق سعد الكتاب بعد أن انتهى من قراءة ذلك المقال وقد لاحظ أن كاتبه هو شخص يدعى أحمد ناجم، صحيح أنه لم يكتب عن تجربته في شقة "سعادة للإيجار" كما كان يتصور سعد، إلا أنه اكتسب معلومة جديدة تخص السعادة التي يبحث عنها.

الساعة تشير الى الثالثة صباحا وسعد لم ينم بعد من كثرة التفكير في مصيره في هذه الشقة، لم يعد له أي شيء جميل في حياته، بل فقد تلك الحياة منذ زمن بعيد، أين سعد الذي كان يستيقظ باكراً كل يوم للذهاب إلى عمله، ويعود في ساعات متأخرة من الليل قاصدا النوم مباشرة، كيف تحول من إنسان يحب العمل الى إنسان عاطل عن العمل لا يجد

المال ليشتري رغيف الخبز، أين سعد الذي لا يجد حلاوة الحياة إلا بوجود الأصدقاء، وأين وعد الأصدقاء بالبقاء معه حتى ولو انقسمت الدنيا الى عالمين مختلفين إذ بهم يتركونه من أجل شيء تافه، هل هذه هي الصداقة التي كانوا يتحدثون عنها؟ هل هذه هي العلاقة التي يسمونها الإخوة بالروح؟ ... طبعا لا، فالصداقة في هذا الزمن أصبحت مجرد اسم فرض ذاته علينا لسنوات فاكتشفنا حقيقته صدفة دون مقدمات.

الغرفة غارقة في فوضى بسبب الألعاب والأوراق التي استخرجها من الصندوق، ولم يفهم بعد ما علاقة الألعاب مع السعادة التي يبحث عنها، والطائر البجع الذي يراه في كل مكان في الشقة، والذي يشغل تفكيره منذ زمن، وغير ذلك أنه حلم به في أحد لياليه الأولى.

في كل ليلة يقضيها سعد في شقته تراوده الأشباح، حتى أصبح الوضع عادي بالنسبة له، يسمعها وهي تتحدث معه، وينام على ذلك الوضع، بالإضافة الى الأثاث الذي يتحرك من تلقاء نفسه، وهذا هو السبب الرئيسي في ابتعاد أصدقائه عنه، وشكاوة جيرانه ظنا أنه هو الذي يصدر تلك الأصوات

في الليل، وكل هذه الأمور وأكثر جعلته يعيش في كآبة كبيرة ويدخل في عالم الأشباح التي تراوده.

بعد أيام قليلة عاد سعد في الليل بعدما خرج للتنزه بسبب الملل من تلك الشقة التي يقضي كل أوقاته فيها، عندما وصل إلى باب شقته وجد على الأرض بطاقة صفراء مكتوب عليها عنوان بخط يدوي، وذلك العنوان كان لمكان بعيد جداً، لم يفهم سعد ما المقصود بتلك البطاقة، وظل طيلة الليلة يحللها، هل يعقل أن يكون هذا العنوان من مفاجآت الشقة؟ أم أنها رسالة من صديق قديم؟ وهذه الأفكار بل وأكثر تجعله يشعر بخوف شديد مما سيحدث. بعد التفكير الطويل قرر الذهاب الى ذلك العنوان في الصباح التالي.

عند شروق الشمس استيقظ سعد وهو متوتر، متلهفا لمعرفة ما سيحدث، وفي الوقت نفسه يشهر بخوف شديد، ماذا لو كان هذا فخا من أحد ما؟ هل يمكنه أن يغامر؟ طبعا يمكنه ذلك، منذ اليوم الأول الذي دخل فيه شقة "سعادة للإيجار" وافق على كل الأمور التي ستحدث له، وهذه تستطيع أن تكون فرصته لإيجاد السعادة التي يبحث عنها.

انطلقت به السيارة في الطريق وانطلق معه الخوف في سائر جسده، ولم يشعر بأي شيء سوى تحركاته في السيارة يمينا وشمالا، إلى أن وصل إلى مكان مهجور فيه قصر كبير قد انكسر نصفه وكأنه تعرض لزلزال مدمر، خرج من السيارة وانطلق صاحبه بسرعة قصوى وكأنه خائف من المكان، وبقي سعد لوحده يعيش قدره في أبشع مكان شاهدته عيناه، لم يجد أحدا يقاسم معه الخوف والرعب الذي يشعر به كلما نظر الى ذلك القصر، يخطو خطوات قليلة ويعود أدراجه مترددا، يسأل نفسه كيف ستأتيه الشجاعة ليدق الباب، وتراوده أفكار بأن يتخل عن كل شيء ويعود الى الشقة، الى أن شعر بيد خشنة كبيرة تمسك كتفه، لم يستطع النظر الى وجه الرجل بل ظل يحدق في القصر منتظراً أحدا ينقذه من الموقف. فجأة نظر الى تلك اليد فوجد عليها وشما لطائر البجع، فتذكر ذلك الحلم الذي حلم به في أيامه الأولى في شقة "سعادة للإيجار"، استطاع وأخيرا أن ينظر الى وجه الرجل، فوجده نفسه الشيخ الذي حلم به، وبدت على وجهه

علامات التعجب والدهشة مما يراه، هل يمكن أن يكون هذا أيضا حلم، أم خيالا يراه في شقته؟

سأله الشيخ:

-"هل أنت سعد كايا"

لم يجد سعد من الكلمات ما يكفي كي يرد على الشيخ وظل يحدق به دون أن يحرك جفن عينيه، إلى أن هز رأسه إيجابا.

-"كنت أعرف أنك ستكون سعد"

أضاف قائلا:

-"هل يمكنك أن تأتي معي لنتحدث قليلا"

لم يلفظ سعد بأي كلمة وسار وراء الشيخ الى أن وصلوا الى وادي يشبه الواد الذي حلم به في منامه والذي لقبه الشيخ بوادي السعادة.

-"هل تعرف ما معنى السعادة"

سأل الشيخ سعد سؤالا حيره ولم يعرف كيف يمكنه أن يجيبه وقال:

-"في السابق كنت سعيدا في حياتي عندما كنت برفقة أبي وأمي، وبعد وفاتهما أصبحت حياتي جافة لم أعد أشعر بتلك

الحلاوة التي كنت أشعر بها من قبل، وقررت بعد ذلك أن أستأجر شقة "سعادة للإيجار" والتي سمعت الناس يتحدثون عنها أنها تجعل ساكنها ينعم بسعادة غير طبيعية، وغير ذلك أنا لا أعرف ما معنى السعادة"

-"السعادة يا بني لا ترتبط بالمال ولا الأحباب ولا الأصدقاء، كل هذه تكمل السعادة فقط ولا تصنعها، السعادة هو شعور مختلف تماما، يأتي من داخلك ولا تعرف سببه ولا مصدره، هو نوع من الارتياح الذاتي، وغير ذلك فإن لم تكن سعيدا لا يستطيع المال أن يجعلك سعيدا ولو ملكت الدنيا بأكملها، وتلك السعادة التي تبحث عنها ستجدها عندما تعرف قيمتها، وهذه القيمة لن تعرفها إلا إذا عشت أزمة كبيرة"

أضاف الشيخ:

-"حياتك تحولت الى الاسوأ بينما كنت تريد أن تكون سعيدا، وإذا أردت أن تحسن حياتك فالحل عندي"

-"طبعا أريد ذلك يا شيخ"

ذهب الشيخ متجها إلى باب القصر والذي يتواجد وراء المكان الذي يجلس فيه سعد، وعاد بعد دقائق وفي يده قارورة ماء كبيرة.

-"ما هذا يا شيخي"

-"هذا هو الحل لكل مشاكلك، ستشرب في كل ليلة ملعقة من هذا الماء وحين تنتهي منه ستعود إلي"

-"حسنا، لكن ما سر هذا الماء"

-"هذا الماء غير حياة العديد من الناس وهو يسمى بجرعة السعادة"

-"أعدك يا شيخي أنني سألتزم بهذا الماء ولن أخيب ظنك بي، لكن أين سأجدك عندما أنتهي من هذا الماء"

-"عندما ستنتهي من الماء أنا سأبعث لك بطاقة جديدة، وإن لم أبعث فتعال إلى هذا المكان وستجدني هنا بانتظارك"

-"حسنا يا شيخي، والان أستأذن منك بالذهاب فقد تأخر الوقت والشقة بعيدة عن هذا المكان"

ودع سعد الشيخ وشكره على جرعة السعادة التي ستغير حياته الى الأفضل ووعده بالالتزام بها يوميا، وركب في

السيارة وعاد أدراجه الى شقته الصغيرة متفائلا بأنه سيصل إلى السعادة التي لطالما حلم بها، وهذه المرة متأكد من ذلك، ولكنه ينسى بعد الدهشة التي حدثت له، كيف لشيخ أن يحلم به ثم يراه على أرض الواقع، أيعقل أن يكون هذا حلم أيضا وتذهب كل أحلامه وهو يلوح له بيده؟ هذا ما كان خائف منه، لكنه اكتشف بعد دقائق أنه ليس كذلك، لقد وصل إلى شقته واستخرج جرعة السعادة من الكيس وظل يعد الدقائق والساعات ليشرب ملعقة من الماء ليرى التحول الذي سيطرأ على حياته.

استيقظ سعد من غفوة بعدما نام فجأة وهو ينظر الى الساعة ينتظر العاشرة ليلا كي يشرب ملعقة من جرعة السعادة، كان خائفا أن يفوت عليه الوقت من أول يوم، إلا أنه اطمأن عندما وجد الساعة التاسعة ليلاً، بقيت ساعة كاملة لمهمته.

مباشرة عند الساعة العاشرة أخرج سعد قارورة الماء ليشرب أول رشفة من جرعة السعادة، وقبل ذلك تمنى أمنية ودعا الله كي يستجيب دعاءه ويحقق حلمه، وقد شعر براحة كبيرة عند أول رشفة وكأن ثقلا كبيراً أزاح عن جسده

النحيل، كانت القارورة كبيرة وكمية الماء التي تتواجد فيها تعادل عشرة لتراً، ونفاذ هذه الكمية يتطلب أياما عدة، لكن سعد لا يستطيع الانتظار متسائلا في نفسه ما الذي سيحدث عند ذلك؟ لكن للأسف لا يعرف أحد ما الذي سيجري.

في الصباح الباكر على الساعة السابعة صباحا استيقظ سعد من النوم، شرب كأسا من الماء الساخن وخرج للمشي قليلا قبل تناول الفطور، وفي طريقه التقى بصديقه القديم الذي تركه منذ مدة فقط من أجل الشقة والأمور الغريبة التي حدثت له في الأيام الاخيرة، في الغالب يهرب منه حين يراه لكونه أصبح فيلم رعب يخشى منه الناس، لكن اليوم مختلف تماما عن سالفه، فقد أتى إليه طالبا منه السماح والاعتذار من أجل ما حدث، طبعا سعد لم يرده خائبا بل قبل اعتذاره وكان سعيدا من ذلك، والسبب بالتأكيد يعود الى جرعة السعادة، وكما قال له الشيخ بأنها ستغير حياته إلى الأفضل، لكن سعد لم يكن يتوقع أن الأمور ستتحسن بهذه السرعة، بل كان يعتقد بأن حياته ستتحسن عند انتهائه من جرعة السعادة.

كانت سعادة سعد بعودة صديقه لا توصف، فقد أيقن أخيراً بأن الشقة ستوصله الى هدفه، سيحصل على السعادة التي يريدها، لكن الشقة ليست هي من ستجعله سعيدا بل الفرص التي تخلقها وتقدمها له هي من تجعله يصل الى حلمه.

مفاجآت الشقة لم تنته بعد، وحلم سعد بالسعادة يكبر يوما بعد يوم، فالمفاجآت الجميلة التي تنتظره بعد جرعة السعادة لم تأتي ولن تنتهي، لكن لا ننكر أن حياته بدأت بالتحسن بداية من الجرعة الأولى، وما زال ينتظره الكثير... في اليوم التالي بعدما استيقظ سعد من نومه باكرا كعادته آتاه عرض عمل، إنها مهنة أحلامه، المهنة التي كان يتمنى والده رحمه الله أن يرى ابنه يزولها في المستقبل، وقد درس من أجلها وتعب لنيلها، إنها مهنة المحاماة، منذ أن كان سعد صغيرا كان يمثل ويتخيل نفسه أنه محام يدافع عن أشخاص ظلمتهم الحياة وأخذ منهم الأغنياء حقوقهم، والآن يحقق حلمه الذي ظن أنه مستحيل، والفضل راجع الى جرعة السعادة التي أهداها إياه الشيخ يوسف.

بدأ سعد العمل في المحاكم وهو يدافع عن الأشخاص المظلومين، ويسعى إلى تحقيق العدالة ومعاقبة الظالمين، واعتقد أنه حقق أهم حلم كان يظنه مستحيل وفاجأته الحياة بأنه تحقق، بعد هذا الإنجاز لا شيء مستحيل في الحياة، كيف ما كانت الحاجة التي يطمح إليها يمكن له أن يحققها... هكذا هي الحياة تقهرك وتبهرك وقت ما شاءت ولا تترك لك سوى رائحة الذكريات لتعود لشمها حين تصفعك وتغرقك بالدموع، لكن الحقيقة المرة هي أن الحياة قصيرة لدرجة لا يمكننا أن نضيعها في ذرف الدموع والحسرة على الماضي.

بعد أيام قليلة تحولت حياة سعد من كابوس مرعب الى حياة مليئة بالحيوية والنشاط، في كل يوم يكسب فيه قضية ما من قضاياه يتحول إلى إنسان متفاءل، ويسعد بسعادة موكليه. وأدرك أخيرا بأن الحياة مهما ظلمتك ومهما أحزنتك سيأتي يوم تدخل فيه البهجة على روحك، أما الماضي فهو سيضل أياما ذهبت وانتهت لن تعود مهما حاولت. من هنا استطاع سعد أن يتابع حياته دون التفكير لا في الأزمات ولا الصعاب

التي قضاها بعد وفات والديه ولا الأحداث الأخيرة في الشقة، أما بالنسبة لمشاكله مع جيرانه فقد تحسنت الأوضاع الى حد ما، لم تعد المارة تشتمه ولا الجيران يشتكون منه، بل يتحدثون إليه وكأن شيئا لم يحدث. هناك مشكلة ظلت متمسكة بسعد، إنها الأشباح التي تراوده كل ليلة وتصدر نفس الأصوات وتحرك في الأثاث هنا وهناك، وعند استيقاظه من النوم يجد المنزل في كركبة كبيرة.

إنها أيام قليلة وسينهي سعد من جرعة السعادة، شهر ونصف مر في لمح البصر وهو مدمن عليها يشرب ملعقة كل ليلة كما وعد الشيخ، وهو في انتظار مقابلته من جديد ليرى التحسن الذي سيطرأ على حياته، هل ستنتهي تجرته مع شقة "سعادة للإيجار"؟ أم هناك تجربة أخرى يتحتم عليه أن يتجاوزها من أجل الوصول الى السعادة؟ ... تغيرت حياة سعد بشكل ملحوظ، فهو حقق حلمه بشأن مهنة أحلامه، ووجد صديقه المقرب يعتذر منه ويعده ببداية جديدة، بل وحصل على أصدقاء جدد أيضا، لكن قصته لم تنتهي هنا ولن تنتهي... لقد انتهى سعد من جرعة السعادة وظل ينتظر

ذلك الشيخ ليرسل له بطاقة جديدة، لكنها لم تصل بعد، لا في اليوم الأول ولا الثاني ولا الثالث، عند هذا الحد قرر الذهاب الى نفس المكان الذي ذهب إليه من قبل، كما قال له الشيخ بأنه إذا لم يرسل له البطاقة فإنه يجب عليه أن يذهب الى ذلك القصر المهجور... فعلاً هذا ما حدث، في اليوم التالي استيقظ سعد في الصباح الباكر قاصداً المكان الذي يتواجد فيه الشيخ، انطلق عبر سيارة أجرة حيث أوصلته الى المكان ذاته، خرج من السيارة وظل يحدق في القصر بضع دقائق متخيلا حياة الشيخ فيه، كيف يمكنه أن يعيش في هذا القصر المهجور لوحده خاصة أن نصفه مكسور؟... لم يكن سعد خائفاً هذه المرة، فقد أصبح يعرف الشيخ والمكان، خطو خطوات قليلة ليصل الى الباب، كان هذا الاخير مصنوع من الحديد ليس مثل كل البيوت حيث تكون أبوابها مصنوعة من الخشب أو الألمنيوم، دق دقات صغيرة إلا أنها سمعت بصوت قوي يطنطن داخل أذن سعد، لكن لا أحد يفتح الباب، عاد سعد يدق بسرعة قصوى، لكن لا أحد يسمع ولا أحد يفتح، اعتقد أنه مشغول وظل ينتظر أمام الباب، لكن دون

جدوى، فقد انتظر كل تلك المدة وأكثر، ودق الباب من جديد، الى أن استسلم في الأخير... قرب ذلك المكان المهجور كان هناك مجموعة من الرجال جالسون بجانب محل للمواد الغذائية متجمعين حول طاولة صغيرة، عندما رآهم سعد ذهب ليسألهم إن كانوا قد رأوا الشيخ يوسف أنجول. عند وصوله إليهم خاطبهم قائلا:

-"هل تعرفون الشيخ يوسف أنجول"

أجابه رجل من تلك المجموعة:

-"نعم نعرفه، ومن لا يعرف ذلك الشيخ الكريم"

-"لقد ذهبت إليه لكنه غير موجود في قصره، هل يمكنكم أن تدلني عليه"

-"للأسف الشيخ يوسف توفي قبل شهر تقريبا"

تفاجأ سعد من الخبر، وقد أتاه كالصاعقة، كيف للشيخ أن يموت قبل أن يحصل على السعادة التي يبحث عنها، وما السبب في موته وهو قبل شهر كان بصحة جيدة... أسئلة كثيرة لا يستطيع سعد الإجابة عنها ولا الاستفسار عن سببها، لأول مرة يشعر بخيبة أمل كهذه وكأن أحدا ما يسعى لوضع

نهاية حزينة لقصته، أن لا يحصل على السعادة التي يبحث عنها، كيف يمكنه الآن أن يعرف هل هو في تحسن أم لا، وهل هو بحاجة لتجربة جديدة أم أنه لم يعد يحتاج المساعدة من الأساس، كل هذا وأكثر يدور في عقل سعد، حرب عالمية تحدث في داخله وانهيار كبير لكنه لا يستطيع فعل أي شيء...

عاد سعد عبر سيارة أجرة فاقداً الشغف في كل شيء، فقط ما يريده هو أن ينام لكيلا يفكر فيما حدث له، وهو يعتقد أنه سيحصل على السعادة بعد قليل فاجأه الخبر بوفاة الشيخ الذي كان عبارة عن أمل سيخرجه من الكآبة ويعطيه السعادة التي كان يتمناها...

عند وصوله إلى المنزل سقط أسيرا لغرفته، لا يعرف هل يبكي أم يصبر ويحمد الله، أم يندب ويتحصر على حظه السيء... حدث ما حدث ولم يعد أي معنى للحزن والأسى الذي بداخله، وتذكر كم من مرة اعتقد أنها النهاية وفاجأته الحياة بأنها بداية لأحلام ولآمال جديدة، وقد يكون هذا الحدث خير له ولسعادته، لكن موت الشيخ كشخص أثر على حياة

سعد، فقد كان إنسانا جيداً يحب الخير للناس، وقد وعده بأن يجد السعادة التي يبحث عنها، غير ذلك فقد حلم به قبل لقائه بشهور، ولم يفهم بعد هل كانت صدفة أم هو تخطيط من شقة "سعادة للإيجار"... لقد مر يوم واحد على معرفة سعد بوفاة الشيخ، ولا زال الحزن يخيم على حياته، رغم ذلك كان متأكدا بأن بطاقة جديدة سترسل له، صحيح أنها لن تكون من الشيخ، لكنها ستكون من أحد يعرفه، وقد يكون أخبر أحدا ما ليتابع سعد ليصل للسعادة، وشقة "سعادة للإيجار" سبق وأن عاش فيها أشخاصا حصلوا على ما يريدون وحققوا حلمهم وعانقت السعادة حياتهم...

كلما كان سعد يشعر بالضيق أو الحزن يتجه الى المكان الغريب، إنه المكان الذي يتواجد فيه طائر البجع والعبارات والصناديق، حيث انه سبق وان فتح صندوقا وقرأ الكتاب الموجود فيه، واليوم قرر ان يفتح صندوقا اخر ليتعرف على محتواه معتقداً أن ذلك المكان يجلب الحظ له، كما في المرة الماضية عندما قرأ ذلك المقال "المال لا يصنع السعادة" أتته البطاقة بعد أيام. أخرج صندوقا الى غرفته، حيث كان

الصندوق بحجم أصغر من سابقه، كان هذا الأخير مغطيا بالغبار وعليه شبكات العناكب، فتحه بلطف شديد وتفاجأ من المنظر الذي كان عليه، إنه صندوق ممتلئ بالملابس القديمة، ومرآة صغيرة بويضة الشكل، بالإضافة الى المشطة وفرشاة الأسنان مصنوعة من الخشب، واستوقفه كتاب ملفوف في ورق أبيض للطبخ مكتوب عليه عنوان كبير "المسه بلطف؟"، عندما تصفح سعد الكتاب تفاجأ من محتواه لأنه لا علاقة له بالعنوان، كان الكتاب عبارة عن مقالات كالكتاب الذي سبقه، اختار مقالا ليقرأه، وكان بعنوان "ما رأيك بهذا؟"، كتب أحد ما عن تجربته في شقة "سعادة للإيجار"، تعرض لنفس مشاكل سعد وأكثر، رغم ذلك لم يستسلم واستمر في خوض المغامرة إلى النهاية، حيث وجد السعادة التي تمناها ووجد أخته الضائعة منذ أن ولدت. استغرب سعد للقصة، لم يكن يتصور أن هذه الشقة قد تفعل كل هذا، وتجمع بين اخوين لم يلتقيا في حياتهما مرة، واكتشف بعد ذلك بأن ما يحدث له الآن هي مجرد أشياء بسيطة يستطيع الجميع تجاوزها، مما جعله يبذل مجهودا أكبر لمواجهة الحياة ليصل

الى السعادة، وكما اخبره الشيخ بأن السعادة لا يستطيع أن يجدها إلا بعد أن يعرف قيمتها، والقيمة مقصود بها التحديات والمشاكل والأزمات التي تحدث قبل السعادة من أجل أن يستمتع بها حين يجدها... رتب سعد المكان ووضع الصندوق في مكانه متمنيا اكتشاف صندوق آخر في الوقت المناسب، وذهب للنوم من أجل بداية يوم جديد، من أجل الاستعداد للعمل، فكما تعرفون سعد أصبح محامي فيتحتم عليه الاهتمام بقضايا الناس...

الساعة تشير الى السادسة صباحا حيث استيقظ سعد من أجل الاستعداد للمحكمة، من أجل قضية شخص أتهم بقتل زميل له في العمل، وبعد البحوث المستمرة اكتشف أنه فقط متهم، وأراد مساعدته وهو يطمح لكسب القضية والفرج على ذلك البريء... في المحكمة حيث تصرخ عائلة المقتول من أجل سجن المتهم ونيل عقابه، يجلس سعد على كرسي بجانبه المتهم يبكي تارة على حظ أولاده ويتحدث تارة مع محاميه، إنها الخمس دقائق الأخيرة من أجل الإعلان عن قرار القاضي، وسعد متلهف لمعرفة القرار قبل ان يلفظ به، يمسك

نفسه بشدة كي لا يفعل أي شيء يخرب به قضيته، تحدث القاضي: "حكمت المحكمة على المتهم ... بالبراءة" سعادة سعد بهذا الخبر تعادل الكون بأسره، أحس بشعور غريب كأنه كان سببا في سعادة أحد ما، وعرف أهمية السعادة من أجل متابعة الحياة، وأهمية الصعاب من أجل الاستمتاع بحلاوة السعادة.

بينما عاد سعد من عمله كمحامي، وجد بطاقة صغيرة بحجم البطاقة التي سبقتها، بطاقة باللون الأصفر تتناول عنوانا لمزرعة بعيدة، كان سعد في انتظار هذه البطاقة منذ ثلاثة أيام، أي من معرفته بوفاة ذلك الشيخ، لم يتفاجأ هذه المرة، بل كان مبتهجا ومتحمسا لرحلته الجديدة، والتي سماها برحلة السعادة، ولأن المزرعة بعيدة أخذ سعد كل ما قد يحتاجه وهو في الطريق، من ألبسة ووجبات وحتى الأغطية، كان متفائلا بأن الغد سيكون أفضل.

حان الصباح وحان معه موعد الذهاب، أوقف سعد سيارة واتفق معه على ثمن مناسب، على أن يوصله الى مكانه الجديد، كانت رحلة طويلة، فقد استغرق ذهابه تقريبا ست

ساعات. في طريقهم شاهد سعد العديد من المناطق الريفية، ومر على مجموعة من المدن الصناعية، ولم يشاهد جمالا كجمال المزرعة التي توقفت فيها السيارة، كان جمالها ساحراً ومختلفاً، كلوحة فنية على شاطئ أزرق، أخذت لونا أخضراً يتلألأ بفعل أشعة الشمس، والرياح الخفيفة الباردة تقوم بتحريك أشجار الصفصاف بطريقة هادئة، انها عبارة عن عالم ساحر يغمره الهدوء وينقصه ضجيج المدينة.

نزل سعد من السيارة متجهاً نحول الكوخ، كانت المزرعة عبارة عن منطقة صغيرة غارقة في الاخضرار، يتواجد فيه كوخ خشبي وغابة كبيرة ورائه، بالإضافة الى وادي يعج بطيور البجع. وصل سعد الى الكوخ ودق في الباب دقات صغيرة، ومباشرة فتح الباب، إنها عجوز كبيرة يتراوح عمرها بين الثمانين والتسعين تحمل دلواً صغيرا في يدها ممتلئ بالماء، إنها عجوز مسكينة كانت في وحدتها وغربتها داخل ذلك الكوخ الصغير الذي حكى بدوره عن الوحدة التي عمرت بذاك البيت، وذلك بلون بابه الباهت، وجدرانه المتعطشة للألوان والتي رسمت عليها كل الخرائط الموجودة

في الجغرافيا، لتتحدث العجوز بوجهها المستدير الشديد السمار، والذي رسمت عليه الحقول بفعل الزمن، ولباس يسافر بنا إلى العصر الحجري، وحذاء فقد ملامحه جراء الاستعمال اليومي المتكرر:

-"هل أنت سعد كايا"

أجاب سعد بحروف متقطعة وهو يركز في ملامها المرحة التي تعكس الفضاء الذي تعيش فيه:

-"نـ عـ م"

دعته العجوز بالجلوس على كراسي خشبية ملتصقة بالأرض وسط الغابة الخضراء، طبعا سعد لم يرفض ولم يتردد حتى، بل سار على خطاها حتى وصلوا الى المكان المقصود، جلست العجوز وجلس سعد في الكرسي المقابل لها، ونطقت العجوز قائلة:

-"يا بني أعرف أنك كنت تبحث عن الشيخ يوسف، لكنه مات منذ شهر تقريبا، كان إنساناً رائعاً وطموحاً، فكم من شخص حصل على السعادة بفضله، وقد وصاني قبل أن يموت بأن أساعدك حتى تبلغ السعادة وتجدها أينما كانت يا

صغيري، أعرف أنك عشت أياما صعبة، وفقدت أبويك في حادث سير، بالإضافة إلى أنك فقدت عملك وأصدقائك، لكن بفضل جرعة السعادة استطعت ان تجد الأفضل دائما، حصلت على مهنة أحلامك وعاد صديقك إليك بل وحصلت على أصدقاء جدد أيضا".

أحب سعد حديث العجوز فقد كان نابعاً من القلب، أدرك أخيرا أن كل ما يحدث له خيراً كان أم شراً فهو خير بالنسبة له، حتى وإن كانت عواقبه قاسية، لكنه لا يستطيع ان يدرك ذلك الخير إلا بعد فترة زمنية.

أضافت العجوز قائلة:

-"إلى الآن لم ينتهي امتحانك بعد، ما يتوجب عليك هو أن تعيش معي هنا مدة شهر كامل، وإن استطعت فعل ذلك فإنك بالأخير ستكون قد حصلت على السعادة التي كنت تبحث عنها منذ زمن"

كان من الصعب على سعد ان يعيش مع تلك العجوز بعد الذعر الذي ذاقه في شقة "سعادة للإيجار"، لكنه أيضا كان يود الحصول على تلك السعادة التي ضاع نصف حياته وهو

يبحث عنها، بعد تفكير عميق دار بينه وبين ذاته اكتشف أنه وصل إلى النهاية ولم يتبقى له سوى القليل لتعانق السعادة حياته من جديد، ولذلك وافق على عرض العجوز.

كانت هذه من أجمل لحظات العجوز، فقط لأنها أخيرا ستجد من يشاركها الطعام ويقاسمها الوحدة، قالت العجوز وهي تبتسم لسعد:

-"سأهتم بك لا تقلق"

ابتسم سعد للعجوز ابتسامة لطيفة نابعة من القلب وقال لها:

-"لا أشك في ذلك"

كان سعد يراوده خوف شديد مما سيواجه في هذه المزرعة، ولماذا طلبت منه العجوز البقاء معها، لكنه في الحقيقة أحب العجوز وأحب لطفها وسخاءها.

كان سعد جالساً على العشب تحت الشجرة يفكر في شقته وكل المخاوف التي عاشها برفقتها، وتذكر كم من مرة قرر الرحيل ولكنه لم يستطع، حتى قاطعته العجوز وهي قادمة إليه وتحمل كتابا في يدها.

-"هذا الكتاب يدعى كتاب السعادة، يحمل في طياته كل معاني الفرح والسرور، صحيح أنك لم تعد كما كنت من قبل، فحياتك تغيرت كثيرا مقارنة بالمأساة التي عشتها في شقتك في بدايتها او منتصفها، لكن تلزمك فقط بعض الأمور لكي تعيش حياتك دون مراقبة أحد، ستقرأ هذا الكتاب من اليوم، كل يوم ستقرأ عشر صفحات حتى تبلغ في الشهر ثلاثة مئة صفحة"

مسك سعد الكتاب في يده، ووجد أن كاتبه هو يوسف أنجول وهو الشيخ المتوفى قبل شهر، تعجب سعد من ذلك، وقبل أن يسأل العجوز، أجابته على السؤال الذي لم يطرح بعد:

-"هذا الكتاب من تأليف الشيخ يوسف الذي قابلته منذ حوالي شهرين، لا تستطيع ان تجده في المكتبة، إنه كتاب خاص، لا يمتلكه أحد سوى الأشخاص الذين أهداهم إياه، طبعا أنت لم يكتب لك أن يهديك هذا الكتاب، لكنه أحضره إلي لكي أعطيه لك في الوقت المناسب، وهذا هو الوقت المناسب لذلك"

تذكر سعد ذلك اليوم الذي حلم بالشيخ لأول مرة، والكلام الذي قاله له، وعن وادي السعادة والمواجهة، وقرر أن يخبر العجوز بذلك لعله يعرف ما الذي يجري. خاطبها قائلا:

-"في أيامي الأولى في شقة "سعادة للإيجار" حلمت بالشيخ يوسف، لم أكن اعرفه بعد، كنا في مكان هادئ وجميل أمام واد سماه بوادي السعادة، جلس على ضفة الواد ويمسك بيدي، قال لي كلاما مثيرا والدموع تتساقط من عينه، أخبرني بأنني إذا استطعت ان أتجاوز وادي المواجهة فإنني سأصل الى وادي السعادة، حيث كان هذا الواد مليئا بطيور البجع، قبل أن أسأله عما هو وادي السعادة والمواجهة استيقظت من نومي"

ابتسمت العجوز وتنفست الصعداء وقالت:

-"كنت اعرف ان هذا قد حدث، قبل ان يقابل أحد هذا الشيخ كان يحلم به، ولأنك قابلته طبيعي ان تحلم به قبل ذلك"

زاد غموض وتفكير سعد فيما يحدث، صحيح أن سعد استأجر شقة "سعادة للإيجار" لكي يجد السعادة الضائعة، لكنه لم يكن متأكداً من ذلك، لم يكن يتصور أنه سيكون سعيداً في حياته، وعلى ما يبدو انه قد عثر على السعادة من الأساس.

أضافت العجوز:

-"أنت الان تجاوزت المرحلة المهمة من وادي المواجهة، كل المشاكل التي واجهتها كانت امتحانات ان صبرت عنها نجحت في ذلك، وأستطيع القول بأنك الآن تشرف على وادي السعادة"

سعادة سعد بهذا الخبر تتجاوز المشاكل التي عاشها، وقد تنسيه الهموم والأحزان التي عاشها قبل استئجار شقة "سعادة للإيجار"، لكن تراوده أفكار كثيرة حول العجوز وعلاقتها بالشيخ يوسف. تشجع وطرح عليها سؤال بسيط:

-"هل يمكنني ان أعرف من أنت؟"

أجابت العجوز:

-"طبعا يمكنك ذلك يا بني، أنا اسمي حليمة، والكل يناديني بالخالة حليمة، تزوجت عندما كان عمري ستة عشر عام، كانت لي بنت واحدة اسميتها رفيدة ،كنت أعيش مع زوجي في قرية بعيدة تدعى بقرية "روح الصدقة"، كانت قوانين هذه الأخيرة صارمة وقاسية، عندما يكون أحد ما على سرير الموت يتحتم على أخيه كيف ما كان ان يصدق روحه على أخيه، طلبت من زوجي عدة مرات ان نغادر تلك القرية قبل ان يحدث شيء سيء، لكنه لم يقبل، وكان الثمن روحه، في عام 1929 انتشرت عدوى في تلك القرية الصغيرة، ومعظم من تعادى به مات، وكان اخ زوجي من بينهم، قرر زوجي أن يعطيه روحه من أجل أن يعيش، لكنه لم يختلف عن الآخرين، فكل من أعطى روحه لأخيه ماتوا معا بالأخير، لم يبقى لي أحد في ذلك الزمن من غير ابنتي رفيدة، فقررت أن أهرب من تلك القرية، غير أن مجموعة من الرجال أخذوا مني ابنتي، لم يأخذوا ابنتي فحسب بل أخذوا مني السعادة والأمان الذي كنت أشعر بهم تجاه الحياة، لولا الشيخ يوسف لما استطعت أن أواجه كل تلك الصعاب، بحيث أهداني كتاب

السعادة الذي أهديتك إياه قبل قليل، وهو الذي غير حياتي للأفضل"

أحس سعد بالحزن والأسف تجاه العجوز، فما عاشته لم يكن بالأمر السهل ولا يمكن تجاوزه، لكن انطلاقا من كلامها تأكد أنها سيدة قوية تستطيع مواجهة عواصف الحياة، والأكثر انها تعيش لوحدها منذ سنين.

عندما يحل الليل، يسود الظلام على أرجاء المزرعة، وتبدأ طيور البجع بصيانة أجمل الألحان وهي تسبح في الوادي المجاور للكوخ الخشبي، هناك يتسطح سعد على المرجوحة المربوطة بين شجرتي الزيتون ويتصفح كتاب السعادة الذي أهدته إياه العجوز حليمة.

في الليل، تبدو المزرعة كلوحة فنية تجمع بين الظلام الهادئ والاضواء الدافئة، وتتحول الى عالم ساحر مليء بالهدوء والجمال. تتلاشى أصوات النهار وتستسلم الحقول والأنهار لظلام لطيف يعانق الطبيعة والعالم الأخضر.

تتلألأ النجوم في السماء السوداء كالألماسة المتلألئة، وتضيء القمر بنوره الفضي الهادئ، وأصوات الحيوانات

من كل أنواعها تشكل مجموعة أنغام لا تجدها إلا في المناطق الريفية.

القرية غارقة في نوم عميق، ونهيق الحمير وهو يعلن عن جوعه يخترق المزرعة، إنها أيام فصل الربيع، حيث تعانق الطبيعة اخضرارها، وتعلن عن فترة حصادها. جمال الطبيعة في النهار تتجاوز الليل، حيث الصورة تبدو أكثر وضوحا من ذي قبل، مع نسيم من الهواء يتطاير بها العشب الأخضر، ورائحة القهوة في الطبيعة له طابع خاص، تجلس العجوز بالقرب من سعد وراء الكوخ على طاولة صغيرة عليها فطور الصباح، القهوة والزيت والزيتون الأسود، بالإضافة الى الخبز الساخن الذي خرج من الفرن المصنوع من الطين منذ قليل، كان الجو شبيه بجبال الالب في سويسرا، فجمال المنظر يجبر المرء على نسيان همومه والدخول في عالم الطبيعة الخلابة. كانت الأيام طويلة بالنسبة لسعد، فقضاء شهر كامل في هذه المزرعة كان أجمل قرار يتخذه، لكن فكرة ابتعاده عن شقة "سعادة للإيجار"

ومفاجآتها تشعره بوجود فراغ كبير في يومه، طبيعي هذا الشعور، لأن حياة المزرعة مختلفة تمام عن صخب المدينة.
ذهب سعد برفقة العجوز لاكتشاف المزرعة، كانت هذه الأخيرة بحجم منطقة صغيرة محاصرة بحائط من الحديد من كل الجهات، مما يجعلها أكثر أمانا من المدينة، منظرها يغذي الروح بالطاقة الإيجابية، كانت مليئة بالأشجار من كل أنواعها، والعشب الأخضر والحقول والأنهار، والفواكه والخضر، بالإضافة إلى أشجار الصفصاف التي تتطاير بفعل الرياح الخفيفة الباردة القادمة من الشاطئ.
كانت العجوز تعيش فقط على أطعمة الطبيعة، بحيث لم يكن السوق قريب من المزرعة، لكنها تذهب كل أسبوع لبيع الخضر والفواكه. بعد الفطور الصحي الذي تناوله سعد والعجوز انتقلوا الى قطف الثمار من الأشجار، وحصد القمح من الحقول، كانت حياة المزرعة هادئة والأشغال تتطلب مجهودا وقوة أكبر، لكن سعد أحب تلك الأعمال ولم يمل منها، لبس لباس العمل كالذي لدى العمال وقبعة تحميه من

اشعة الشمس الحارة، ووضع قنينة ماء بالمقربة منه.

يقطف سعد الفراولة ويضعها في السلة، والعجوز تجمع في التفاح المتساقط على الأرض، بالإضافة الى الخوخ والاجاص. شعر سعد بالتعب والجوع مما جعله يأكل بندورة وهو يقطفها.

-"إنها لذيذة، لم أذق مثلها من قبل"

-"طبيعي يا بني لأن طريقة زرعها تختلف من شخص لآخر، والطريقة التي اعتمدت عليها تعلمتها من أمي رحمها الله"

-"هل عشت في هذه المزرعة في طفولتك"

-"لا يا بني لم أعش في هذه المزرعة، لكنه كان مكانا يشبه هذا المكان كثيرا، عشت في قرية التجار"

-"ما معنى قرية التجار"

-"في الحقيقة لا اعرف بالضبط لماذا سميت بهذا الاسم، كانت هذه القرية بعيدة كثيرا عن المدينة، ولذلك يتواجد فيه سوق أسبوعي اسمه سوق التجار، بحيث يأتي إليها التجار

من مجموعة من المدن من أجل أن تكفي كل البضاعة لأهل القرية"

جمعت العجوز كل الفواكه والخضر ووضعتها في سيارة كبيرة مفتوحة من الخلف، طلبت من سعد سياقتها، وركبت في المقعد الامامي بجانبه. كانت رحلتهم اليوم إلى السوق الأسبوعي المتواجد في ضيعة المتسولين، كان المكان يعج بالرجال والنساء من كل الأعمار، والأطفال الصغار والشيوخ، أصواتهم تسمع من خارج الضيعة، هناك من يبيع الفواكه والخضر، وهناك من يبيع الملابس ومن يبيع الأثاث والاواني المنزلية، كل ما قد يحتاجه المرء يجده في هذا السوق الكبير. ذهبت العجوز وسار سعد ورائها الى أن وصلت الى السيد جعفر وخاطبته قائلة:

-"مرحبا سيد جعفر، كيف تسير الأمور؟"

-"أهلا وسهلا سيدة حليمة، نورت المكان، الأمور تسير على ما يرام الحمد لله"

ناولته البضاعة وتحدثت معه بصوت غير مسموع، وسعد يحاول سماع شيء مما تقوله، حتى تحركت العجوز من مكانها وهتفت له:

-"رافقني يا بني"

-"حسنا، انا قادم"

استمر سعد في السير وراء العجوز حتى وصلوا الى سيد في الستينات يدعى عاصم، أمامه أثاث قديد للبيع، بمجرد ان رآهم ابتسم الرجل وقال:

-"أخيرا وجدت من يشارك معك الحياة يا خالة حليمة"

-"صحيح انني وجدته لكنه سيبقى معي مدة فقط"

ابتسم الرجل وقال:

-"خذي ما أردت"

أخذت العجوز تقلب في الأثاث وقالت:

-"هل يمكنني ان أجد عندك سرير صغير بثمن مناسب؟"

-"طبعا"

سعد في الليلة الماضية لم ينم براحة أبدا، فقط اتخذ من الاغطية سريرا ومن لباسه وسادة، فأرادت العجوز ان تجعله

ينام براحة أكبر. مجموعة من الرجال قادمون الى سيارة العجوز لوضع السرير فيه، وقال أحدهم:

-"خالتي يجب أن نرافقك الى المنزل من اجل ان نركب في السرير هناك"

وافقت العجوز وركب في السيارة كل من سعد والرجال والعجوز، كانت قرية المتسولين بعيدة بكيلومترات على المزرعة، ولذلك فإن السيارة تمشي بسرعة أربعين بسبب ثقلها. فور وصولهم الى المزرعة أسرع الرجال بتركيب السرير، ووضعوه في غرفة صغيرة قريبة للباب الخارجي، كان سعد سعيد جدا بغرفته الجديدة، بل وسعيد بالعجوز أيضا، لأنه بفضلها تعرف على قرية المتسولين التي أحبها وأحب أناسها.

جلس سعد على العشب يقرأ كتاب السعادة، من خلال هذا الأخير تعلم الكثير عن السعادة، وأدرك ان السعادة لن تعانق حياة أحد ما دون الصعاب والأحزان، ولولا الحزن لما ذاق شعور السعادة وعرف قيمتها، ولولا شقة "سعادة للإيجار"

لما استطاع سعد أن يعرف قيمة السعادة، قاطعت العجوز تفكيره قائلة:

-"تعال لتناول الطعام يا بني، فقد تأخر الوقت"

-"أين سنتناول طعامنا اليوم يا خالة"

-"لم أقرر بعد، لكن يمكنك أن تقرر ذلك يا صغيري"

سعد من اليوم الأول الذي أتى فيه للمزرعة أحب الأشجار والطبيعة، وكان اقتراحه ان يأكلوا الطعام وسط الغابة المجاورة للكوخ، حيث قابل هناك العديد من طيور البجع في الواد، خاطبته العجوز قائلة:

-"عندما أتيت أول مرة الى المزرعة استغربت من وجود طيور البجع في الواد، حتى أنني كنت انزعج من أصواتهم، لكن في يوم سمعت ان طيور البجع تجلب السعادة لكل مكان تذهب اليه، من ذلك اليوم أحب طيور البجع وأصواتها"

كانت الليلة اول ليلة يبيت فيها سعد في غرفته الجديدة، والتي كانت قريبة من مدخل الباب ومقابلة لغرفة العجوز، ظل يفكر في المفاجآت التي تنتظره في هذه المزرعة وفي شقة "سعادة للإيجار" ولم يستطع النوم، تقلبه في السرير أشعره

بالملل الشديد مما جعله يخرج للخارج لاستنشاق الهواء الطلق، وفي طريقه التقى بالعجوز وهي في المطبخ تخرج وفي يدها كوب ماء، خاطبته قائلة:

-"ألم تنم بعد"

-"لا، ليس بعد، كنت أريد أن أخرج للخارج"

-"اذن تعالى لنخرج معا"

كان الهواء في الخارج بارد كبرودة فصل الشتاء، وصوت طيور البجع تخترق أذني سعد، كما قالت العجوز فسعد أحب طيور البجع وأصواتها رغم أنها تصدر أصواتا مزعجة بعض الوقت.

سعد جالس على المرجوحة والعجوز على كرسي متحرك، كان منظر النجوم يذكره بأول ليلة قظاها في شقة "سعادة للإيجار" ورغم الأصوات التي سمعها والمنظر الذي وجد فيه المطبخ في الصباح لم يستسلم واستمر في طريقه للبحث عن السعادة، وها قد تحسنت حياته الان وأصبح سعيدا كما كان يريد.

استيقظ سعد تحت أشعة الشمس الحارة التي صفعت وجهه، إنها السادسة صباحا.

-"صباح الخير سعد"

خاطبته العجوز وهي تخرج الخبر من الفرن المصنوع من الطين المجاور للمرجوحة التي نام عنها سعد.

-"لم أرد ايقاظك، كنت غارقا في النوم رغم الضجيج الذي أحدثه"

-"صباح الخير خالة حليمة، ما الذي تفعلينه الان"

-"أجهز الخبر، سنتناول فطور الصباح عندها سنذهب في رحلة ستحبها كثيرا"

-"إلى أين"

-"إنها مفاجأة يا بني"

عند الانتهاء من الفطور، أقبلت العجوز وهي ماسكة شبكة الصيد وهتفت لسعد:

-" بني، هل رأيت رجلا قادما الى هنا"

-"لا لم أر أحدا يا خالتي"

-"حسنا أنا سأدخل الى الداخل، إذا رأيته فناديني بسرعة"
دخلت العجوز الى الداخل تجهز بعض الأشياء لأخذها في الرحلة، أما سعد فقد رأى رجلا ذو عضلات يلبس لباسا غريبا.

-"مرحبا يا أخي، هل تعرف أين يمكنني أن أجد الخالة حليمة"

-"انتظرني هنا، سأذهب لإخبارها وآتي في الحال"

ذهب سعد لإخبار العجوز، وأقبلا معا إلى الرجل، حيث سارع ذلك الأخير لتقبيل يد الخالة حليمة.

-"مرحبا خالتي، كيف حالك"

-"أنا بخير يا بني وأنت كيف تسير أمورك"

-"الحمد لله كل الأمور تسير على ما يرام"

-"إذا كنت جاهزا فيمكننا الانطلاق"

-"طبعا"

ذهبا العجوز والرجل الغريب وأقبل سعد وراءهما، الى أن أدرك أن رحلتهم ستكون باتجاه الشاطئ، وكان مخطئا في ذلك، لأن رحلتهم لن تكون فقط على الشاطئ بل في قارب لاكتشاف البحر، كان سعد يغمره الفضول والغموض حول سبب هذه الرحلة، الى أن وجد نفسه يدخل القارب ويتشبث به بقوة كي لا يسقط.

الهدوء والرياح الخفيفة وأصوات الأمواج وهي تصطدم بالقارب كادت أن تشتت تفكير سعد، لولا الشعاع الذي انبثق من أشعة الشمس الصيفية الحارة، إنه شعاع الأمل والحلم بالمستقبل، هذا المستقبل الذي لطالما ظهر كشبح مخيف ومرعب، وها هو الان يعلن عن السعادة التي استقبلت حياته من جديد، وولوجه الى عالم آخر، عالم مختلف تمام عن الذي سبقه، عالم لطالما شاهد الناس وهم يعيشون فيه، وسمع عنه على لسان الاخرين، لكنه كان محاصرا من كل الجهات ومكتوب عليه ممنوع الدخول، وتطلع على حياته في الكتب والجرائد وتذوق حلوته قبل وفاة والديه.

الرجل الغريب هو الذي يقود القارب، أما سعد فهو غارق في التفكير في ذكريات الماضي وأحلام المستقبل، وتركيزه على أمواج البحر والنسيم الذي به يتطاير جلبابه الواسع، أحب البحر واتخذ منه صديقا طيلة الرحلة، وشبهه بالسعادة، لأن الوصول إليه يتطلب صبرا وعزيمة وإصرار، كلما اعتقد أنه يعرفه فاجأه بعواصف أعادته الى نقطة البداية.

كل شيء جميل في هذا البحر، وكل تفصيل صغير استوقف سعد ليحاول أن يستحضر جميع الكلمات والعبارات التي تعكس بصدق جمال هذه اللوحة الفنية، والتي استعمل فيها الخالق أحلى لون وهو اللون الأزرق، وفيه يتطابق الأرض بالسماء ليشكل أجمل شعور في قلب سعد، شعور بالراحة والطمأنينة، وأعلن عن كتابة حياة جديدة عنوانها حياة السعادة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

كانت هذه الرحلة الى المجهول، فسعد لا يعرف الى أين يتجهون ولا غايتهم من هذه الرحلة، لكن الشيء الذي كان متأكدا منه هو أنها مفاجأة من مفاجآت العجوز، والتي دائما ما تحاول أن تجعله سعيدا، لأنها غايتها الوحيدة. كانت هذه

أول جولة لسعد في القارب وسط البحر الأزرق الذي يعجز اللسان ويتوقف القلم وينتهي كل الكلام فور بداية وصفه، البحر الذي يعطيك كل ما هو جميل لبداية حياة جديدة قائمة على روح التفاؤل والسعادة، ويحول ذكريات الماضي الأليمة الى رماد يتطاير نحو مستقبل مشرق ينسيك بكاء الليالي وتعب السنين.

في القارب الصغير الذي يواجه أمواج البحر من كل الجهات بدأت عملية الصيد، وهذه التجربة التي لم يجربها سعد من قبل بل لم يشاهدها حتى، وكانت هذه أجمل فرصة له ليتعلم أمور البحر، تحدثت العجوز قائلة:

-"لقد مللنا من نفس الطعام الذي نأكله كل يوم، الفواكه والخضر، هذا ما نملكه في المزرعة، من حين لآخر أحب أن أخرج عن الروتين قليلا، لنأكل منتجات البحر"

-"جميل ما فعلت، فقد أحببت البحر، إنه هادئ يشعرني بالراحة، لا أعرف إذا كان هكذا كل يوم أم فقط اليوم على حسب جوه"

قال هذا سعد وهو يقلب شبكة الصيد في يده ويحاول معرفة كيف تستخدم.

-"يا بني إن البحر لا يفهمه أحد، قد يكون الجو مناسبا للصيد، لكن فجأة تجد البحر هائجا لا يطيق أحد، لكنك ستحبه في كلتا الحالتين"

أضافت العجوز:

-"الان يا بني يجب عليك أن تتعلم كيفية الصيد، وهذا الرجل هنا من أجل ذلك"

صحيح أن سعد لا يجيد الصيد، لكنه كان متلهفاً لتجربته الأولى، هذه أول مرة يمسك فيها شبكة الصيد ويرميها في قاع البحر ليختبر حضه في صيد سمكة ما، فوجد نفسه في حضرة سحر الصورة، والمياه العذبة، والفن الجميل الذي احتوى في طياته جمال الصورة والصوت الجميل، الذي تقدمه لنا الطيور من كل أنواعها، وطائر البجع الذي يقف تارة على القارب وتارة أخرى على الشراع، استطاع أن

يضيف للمكان جمالية خاصة، حيث أصبحت الأصوات الجميلة سيدة الموقف.

كل شيء في هذا البحر يدعوا سعد للاستمتاع بكل لحظة من لحظاته، ليأخذه المساء بدوره الى الاستمتاع بأجمل لوحة فنية وهي لحظة غروب الشمس، حيث تأخر الوقت على العودة للمزرعة واضطروا للذهاب لأكثر مكان مهجور، إنها جزيرة صغيرة كنقطة وسط البحر الشاسع، نصفه غابة مع وجود مساحة صغيرة للتخييم، كان الرجل الغريب دائما ما يذهب إليها عندما يكون منزعجا من شيء ما، وهذه المرة ذهب برفقة العجوز وسعد.

الليل يغطي كل الجزيرة بسواده الذي كاد أن يتسلل الى عقل سعد بأفكار مرعبة ومخيفة، وجمال المكان هو عبارة عن لوحة فنية أبدع فيها الخالق بأحلى الألوان التي تظهر بفعل نور القمر الفضي والنجوم المتلألئة في السماء التي تسلط عليها سواد الليل وأصبحت مختلفة تماما عن التي نراها في النهار، وهذه اللحظات التي مزجت بين الخوف والاستمتاع.

حينما حل موعد النوم كان من الضروري أن يخيموا على الجزيرة الخالية من كل بني آدم من غير الحيوانات والحشرات، بالإضافة الى الطيور التي تغرد من حين لآخر، وهذه كانت من أسوء لحظات سعد، بينما كان يعتقد أنه تخلص من الرعب الذي ذاقه في شقة "سعادة للإيجار" ظهرت قصة التخييم على الجزيرة المخيفة، لكنه كان يشعر بالأمان لوجود ذلك الرجل الغريب، والذي سبق وأن أخبرهم أنه أتى الى هناك عدة مرات عندما يكون منزعجا وغاضبا، أي أنه قد يكون قادرا على مساعدتهم في حالة حدوث أي شيء غير متوقع. بعد مدة خيم هدوء وصمت رهيب على الجزيرة، ليأخذهم النوم الى عالم الأحلام، ليستيقظوا في الصباح الباكر على شعاع يداعب وجوههم، إنه شعاع أشعة الشمس المشرقة التي تتسلل من المخيم الشفاف، ومع أول إطلالة من هذا المخيم تبدأ تجهيزاتهم من أجل الرحيل، انتهت قصة سعد مع الجزيرة المهجورة والآن يستعد للذهاب لإكمال رحلته في المزرعة والتي ستنتهي قريبا بعد إتمام الأسابيع القادمة. العجوز والرجل الغريب يقومون بترتيب

متاعهم في القارب، أما سعد فهو يقوم بجولته الأخيرة على تلك الجزيرة، صحيح أنها مخيفة لكنه أحبها كثيرا. انها لحظة الفراق، اللحظة التي سيودعون فيها الجزيرة متمنيين العودة إليها يوما، انطلق القارب ليعود بهم الى المزرعة الى موطن العجوز والمكان المفضل لسعد، المكان الذي أحبه رغم أنه لا ينتمي إليه، والذي يشعر بالخوف فور سماع جملة العودة إلى الشقة، رغم حبه الكبير لها، ورغم الحنين الذي كان يدفعه للعودة أليها، لم يستطع تقبل فكرة أنه سيفارق المزرعة وهوائها الطلق البارد القادم من الشاطئ، وأشجارها التي لا يمل من النظر إليها، والعشب الذي يتسطح عليه ليقرأ كتاب السعادة، وشوقه الكبير سيكون لخبر العجوز ووجباتها التي لا يشبع منها، والصعب من كل هذا أنه لن ينتظر المفاجآت الجميلة من العجوز بل ستكون مفاجآت الشقة المرعبة، لكنه بالأخير لا ينكر أن اللحظات الجميلة التي يعيشها حاليا كانت نتيجة للصعاب والمصائب التي ذاقها في شقته.

الاصطدام الذي حدث الآن أخاف كل من العجوز وسعد، إنه القارب اصطدم بصخرة كبيرة تعتبر جزءا من الجزيرة، مما

أحدث ثقبا كبيرا فيه، وبدأت المياه تنسرب بداخله، هذا الوضع أخاف حتى الرجل الغريب الذي كان سعد يعتقد أن لا شيء يخيفه وأن كل شيء يمكنه حله.

-"أووه ما الذي سنفعله الان"

قال هذا الرجل الغريب وهو شديد الغضب، بينما سعد يحاول تهدئة الوضع قالت العجوز:

-"يمكنك حل هذا يا بني، لكن في البداية يجب عليك أن تفكر"

ظل الرجل الغريب يفكر لساعات طويلة إلى أن وجد أن الحل المناسب هو المكوث على الجزيرة لكي يجهز قاربا ليعبروا به البحر، وكانت الفكرة صعبة لكل من العجوز وسعد، كيف لسعد أن يمكث على هذه الجزيرة وهو متلهفا للعودة إلى المزرعة ليستمتع بأسابيعه الأخيرة قبل عودته إلى شقة "سعادة للإيجار"؟ كيف لسعد أن يتحمل الجزيرة المهجورة الخالية من كل بني آدم؟ ... إنه يجد هذه الفكرة من المستحيل، من المستحيل أن يظل سعد في هذه الجزيرة لا يجد ما يأكل ولا أين ينام، وكيف سيتم صناعة القارب

وبماذا سيصنع؟ رأس سعد يكاد ينفجر من كثرة الأسئلة التي تحتويه، وأما العجوز فهي مرتاحة البال، وموافقة على فكرة الرجل بعد تفكير طويل دام دقائق معدودة.

إنه يوم طويل ومتعب قضاه سعد والرجل الغريب في قطع الأشجار لإيجاد خشب مناسب يصنعون منه القارب، والعجوز بدورها تدلهم على الأفضل لكونها تهتم بالغابات والأشجار منذ طفولتها، يسعون لبذل جهد مضاعف من أجل تقليل المدة التي سيقضونها على الجزيرة رفقة الحيوانات المتوحشة.

وسط الجزيرة المهجورة، في غابة تملؤها الأشجار من كل أنواعها، والصفصاف الطويل الذي يميل تارة إلى اليمين تارة إلى الشمال، يقف سعد يشاهد الرجل الغريب وهو يقطع في شجرة كبيرة يعادل طولها عشرة أمتار، أما العجوز فهي جالسة بالمقربة منهم تقطع في التفاح الطري الذي اقتطفته من شجرة مجاورة للمكان الذي خيموا فيه. كانت الأجواء مملة بالنسبة لسعد، وهو الذي كان يحب المغامرة والاستكشاف، لكن في لحظة خطرت في باله فكرة أن يذهب

لاستكشاف الجزيرة ودون أن يخبر أحداً، وكانت رحلته إلى داخل الغابة الخضراء، إنها الظهيرة، حيث تكون الشمس تحتل وسط السماء لتنشر أشعته في سائر الجزيرة، وأصوات الطيور وهي تزقزق على الأشجار تجعل سعد يستمر في السير، يمشي ويمشي ولا يعرف أين يتجه ولا في أي مكان هو، إلى أن استوقفه شيء غريب، إنه كهف كبير تتناثر عليه أوراق العنب من كل الجهات، بدأت حكاية سعد عندما خطو أول خطوة ليدخله، أصوات الخفافيش تسير به نحو قعر الكهف، حيث أنه كلما دخل أكثر أحس بنفسه يدخل في باطن الأرض، إنه على عتبة ولوج عالم آخر، عالم العصر الحجري، وحياة الانسان البدائي... وجد هناك مجموعة من الكتب موزعة على الأرض وكأن أحدا ما سبق له وأن عاش على تلك الجزيرة، بالإضافة الى صوت الماء وهو يتدفق من شلالات بعيدة قليلا عن مكان سعد، لم يكتفي هذا الأخير بالتجول في ممرات الكهف بل دخل في باطنه ليرى تلك الشلالات التي تصدر أصوات جميلة، ولمشاهدة الماء العذب الذي يتدفق منها.

ارتمى سعد في حضن اللوحة الفنية التي كانت تغري بالمشاهدة، ليدون في ذاكرته كل الصفات الجميلة والعبارات العذبة ليستطيع وصف ما تشاهده عيناه، ليستطيع أن يتذكر الزمان والمكان ليرويها للعجوز والرجل الغريب، إنه أروع وأجمل وأحلى مكان يمكن للمرء مشاهدته، أحس من خلاله سعد بالراحة والسعادة القصوى، وفجأة يخبره الوقت بأنها لحظة وسيعود إلى مكان التخييم... لكن للأسف لا يتذكر طريق العودة ولا يعرف في أي مكان هو. لقد ضاع سعد وسط الغابة، وسط الأشجار الكبيرة، وسط الظلام الذي سيخيم على الجزيرة بعد قليل، وبدأ الخوف يتزعزع في داخله، مما دفعه يدخل في حوار داخلي مع نفسه، هل هذه حقيقة يعيشها أم مجرد كابوس سيستيقظ منه بعد قليل؟ يفكر فيما سيفعله بعد هذه الكارثة، أين سيبيت الليلة وكيف يمكنه أن يعود إلى العجوز والرجل الغريب؟

ظل سعد طيلة الليلة يراقب الظلام ينتظر شروق الشمس لبدأ مغامرته في البحث عن المكان الذي كانوا يتواجدون فيه، كان يسمع صوت الذئاب والحيوانات من كل أنواعها وهو

يتشبث بغطاء كان قد وجده في ذلك الكهف، يكاد يموت من الجوع لم يجد ولو لقمة تخفف عنه جوعه، وتأسف على اللحظة التي ابتعد فيها عن الرجل الغريب، عن البطل الذي يستطيع التغلب على كل شيء يواجهه، الذي كان يثق به ويستمد القوة منه حين يشعر بالتعب، مر بجانبه شريط واقعي لذكرياته الجميلة التي اعتقد أنها من أبشع الأيام بالنسبة له، هل سيلوح له بيده أم يعده بالعودة إليه... أما العجوز والرجل الغريب فقد زادهم الخوف عندما سمعوا صوت الذئاب، بحثوا عنه في البداية إلى أن وجدوا الوقت متأخر، فعادوا لينتظروا الصباح ليستمرا في البحث. كانت ساعات الانتظار طويلة مع بداية المطر بالنزول، والظلام الذي كان يخيم على الجزيرة زادته الغيوم اسودادا ليشكل أسوء السيناريوهات في عقل العجوز، لحظة كهذه تمنت فيها لو بإمكانها أن تخلق المعجزات لتنقض سعد أينما كان، لترجعه إلى حضنها، فقد كان خوفها عليه شديدا، كخوف أم على ابنها... كانت أطول ليلة في السنة وأطول ليلة منذ أن خلقت الدنيا، انتظر فيها سعد حتى غفو فجأة، واستيقظ في

الصباح الباكر على صوت قطرات المطر العالقة على سطح الكهف، أما صوت الشلالات فهي لا تنقطع ولا تتوقف، كانت أراضي الكهف باردة ارتعش به جسد سعد وهو يتشبث بقوة في الغطاء الذي أنقضه من الموت، كانت أصعب ليلة من ليالي فصل الشتاء الباردة التي قظاها سعد في حياته مع الرعب والخوف الذي تسرب بداخله معلناً عدم الخروج منه...

في الصباح الباكر بدأت عملية البحث عن سعد، استخدم فيها الرجل الغريب كل الطرق التي تمكنه من وصول إليه، لكن دون جدوى فالساعة تشير إلى الثانية عشر ظهراً ولم يجده بعد، يمشي في الغابة الكبيرة ويصرخ باسم سعد أما العجوز فهي تارة تبكي وتتحصر على حظ سعد وتارة تتذكر الشيخ يوسف أنجول وتتصور لو كان حيا كيف سيتصرف مع الوضع، وتقول "لو كان الشيخ حيا لقال كل المصائب التي تحدث تحمل في طياتها خير كامن لا يراه أحد"، وتبدأ في الصراخ باسم سعد، لكن لا أحد يجيب...

الساعة تشير إلى الثالثة ظهراً، حيث كان سعد نائم خارج الكهف تحت دفئ أشعة الشمس، استيقظ على صوت الرجل الغريب وهو يصرخ "سعد" "سعد"، لم يقم سعد بأي ردة فعل، فقد اعتقد أنه حلم لا أكثر، وتفاجأ عندما رأى الرجل الغريب والعجوز قادمين إليه...

رأى سعد طائر السعادة وهو يطير حوله بجناحيه الكبيرتين، إنه طائر البجع الذي يخلق السعادة في كل مكان ذهب إليه، تحدثت العجوز:

"هذه إشارة عظيمة توحي بقدوم السعادة، أتمنى أن يفرج الله علينا وأن نعود الى المزرعة بسلام"

تحدث سعد:

"لقد قضيت أسوء ليلة في هذا الكهف، اعتقدت أنني لن أستطيع العودة اليكم، لكن بفضل الله عثرتم علي في الوقت المناسب، كنت سأموت من الجوع، شكرا لكم"

عاد سعد والعجوز برفقة الرجل الغريب الى مكان تخييمهم، ليس للبقاء هناك، بل من أجل جمع متاعهم للانتقال الى

الكهف مدة تجهيز القارب، وكان القرار جيدا، أفضل من البقاء في المخيم معرضين للخطر من طرف الحيوانات... كان حجم الكهف كبيرا جدا ونصفه الأكبر يتواجد تحت الأرض، تتواجد فيه مجموعة من الممرات تلتقي في مكان واحد وهو وسط دائري فيه مجموعة من الأحجار مكتوب عليها عبارات بحروف يابانية، وزهور متيبسة تنموا بين هذه الأحجار، وبين كل ممر يتواجد حائط عريض يبلغ عرضه تقريبا مترين وطوله ثلاثة أمتار.

العجوز والرجل الغريب يشعلان النار من أجل التدفئة، ففصل الشتاء على الأبواب والسماء رحبت اليوم بأول قطرات أمطارها، أما سعد فلم يكتفي بجولته يوم أمس بل سار يكتشف المكان مرة أخرى، يدخل من ممر ويخرج من ممر آخر الى أن يعود الى نقطة الإنطاق ثم يعيد الكرة من جديد، توقف لوهلة يشاهد العبارات المكتوبة بالحروف اليابانية والتي لم يفهم منها شيئا، ظل يتأملها الى أن اكتشف كتابة تحتها غير ظاهرة بفعل الغبار، مسح بيده الغبار إلى أن ظهرت الكتابة بشكل واضح وتفاجأ لما رآه... إنها كلمة

"السعادة"، ذهب إلى كلمة أخرى حيث وجدها "طائر البجع"، تعجب سعد لهذا الطائر الذي يجده أينما ذهب، حيث أنه كان مرسوما في شقة "سعادة للإيجار" وكان في الواد في المزرعة، والآن يجده مكتوبا على حائط الكهف، هل يعقل أن يكون كل هذا مخطط من أحد ما، أم القدر يأخذه إلى كل مكان تتواجد فيه السعادة؟ وتذكر الطائر الذي كان بجانبهم طيلة الرحلة على القارب، حيث أخبرتهم العجوز بأن ذلك الطائر سيجلب لهم السعادة، وتيقن سعد أخيرا بأن هذه الرحلة هي عبارة عن رحلة السعادة كما كانت الرحلة إلى مزرعة العجوز... سعد لم ينتهي بعد من كتاب السعادة الذي أهدته إياه العجوز، ولم يتبقى إلا أيام قليلة لأنهائه، إلى أين سيذهب بعد ذلك؟ ... نعم إنه سيعود إلى شقته ليعيش نفس الأحداث من جديد.

الأيام مستمرة في الكهف والرجل الغريب يتحدى الزمن من أجل صناعة القارب في أسرع وقت، أما سعد فهو متلهف للعودة الى المزرعة قبل إتمام كتاب السعادة، ليقضي أيامه

المتبقية فيه، على عشبه الأخضر قرب الواد الذي يعج بطيور البجع...

في الصباح الباكر حيث يستيقظ سعد والعجوز على صوت الخشب الذي يقطع بالمنشار والرياح الباردة التي تدخل من مدخل الكهف مصدرة أصوات مزعجة، إنها أيام فصل الشتاء والرجل الغريب لم يدخل النوم عينيه منذ مجيئهم إلا بعض دقائق محسوبة يغفو فيها مع الخشب الذي يقطعه، بالإضافة إلى قلة الطعام، حيث يأكلون مرة في اليوم أسماك يصطادونها من البحر، وفي بعض الأحيان لا يجدون حتى تلك الأسماء وينامون في النهار لكيلا يشعر بالجوع الشديد وهو يمزق أمعاءهم... لقد عاش سعد أسوء أيامه على هذه الجزيرة، رغم جوها الجميل ومناظرها الخلابة إلا أن الجوع والعطش قد قضى عليه.

مر أسبوع كامل على تلك الجزيرة والرجل الغريب استطاع وأخيرا صناعة القارب من خشب شجرة كبيرة، بفعل العمل المستمر والجهد المضاعف، لم ينم الليالي ولم يستمتع بالنهار كما استمتع به سعد والعجوز. كان هذا القارب بحجم صغير

لكنه كان باستطاعته أن يوصلهم الى مزرعة العجوز، وضعه الرجل الغريب بالقرب من الشاطئ، وبدأوا بجمع متاعهم من أجل الانطلاق، من أجل العودة إلى موطن العجوز. كانت فرحة سعد بهذا الخبر تفوق الخيال ليستطيع أن يعيش مدة في المزرعة قبل العودة إلى شقة "سعادة للإيجار"، قبل العودة إلى المكان الذي يشعر وكأنه ينتمي إليه، قبل العودة الى المكان الذي بدأت فيه حكايته. إنها أبواب الحلم تفتح من جديد في وجه سعد، ليشعر بالسعادة وهي تعانق حياته، ليشعر بولادة أحلام جديدة ستتحقق في القريب العاجل بالعودة إلى عمله، والذهاب إلى مستشفى الأمراض العقلية لزيارة المريض مصطفى والذي أخبره عن حلمه ذات مرة بأنه يود الانتقام من الأطباء حين سيخرج منها، ولا يمكنه نسيان الشيخ يوسف أنجول ذو الفضل الكبير، السبب في سعادة سعد وسعادة مجموعة من الناس، يحلم منذ اليوم الذي عرف بموته بزيارة قبره في يوم من الأيام.

سعد والعجوز والرجل الغريب أقبلوا الى القارب لمغادرة الجزيرة التي عاشوا من خلالها كابوس لا يمكنهم نسيانه، بدأ يذهب بهم شيئا فشيئا الى أن وصل إلى وسط البحر، وبدأ الكابوس الأكبر بولادة أبشع شعور في نفس سعد...

-"إن المياه تتشرب داخل القارب"

هتف سعد بصوت عال ماسكا طرفا القارب بيديه، تحدث الرجل الغريب:

-"يا للهول، إن هذا الخشب لا يصلح للبحر وأنا لم ألاحظ ذلك"

-"لا بأس يا بني سنتجاوز هذا"

-"كيف سنتجاوزه يا خالتي، فقد ذهب تعبي سداً، كم من ليلة لم أنمها"

-"أعرف ذلك يا بني، لكننا لا يمكننا أن نحل الأمر بهذه الطريقة، ألا تعرف بأننا يمكننا أن نموت بسبب الجوع، لذلك يجب أن نجد حلا قبل فوات الأوان"

سعد لم يستطع التلفظ بأي كلمة من الصدمة التي حدثت له، يخاف أن يعيد نفس الكابوس من جديد وهو كان متلهف للعودة إلى المزرعة، أما بالنسبة للعجوز فهي الوحيدة التي لم تبالي بالأمر وكأنها واجهت نفس المشكلة من قبل.

تحدث الرجل الغريب:

-"ما الذي سنفعله الآن يا خالتي إن ظلمت الدنيا مرة أخرى فلن نستطيع الذهاب إلى أي مكان"

-"انتظر يا بني، كأنني أسمع شيئا ما"

تحدث سعد:

-"ماذا هناك يا خالتي"

-"إن لم أكن مخطئة فإنني أسمع صوت قارب قادم من هذا الاتجاه" (وهي تشير إلى الاتجاه بيدها)

-"هل حقا ما تقولين"

-"انتظر لنرى"

كان إحساس العجوز صحيحا فقد رأوا من بعيد قاربا قادما إلى نفس المكان الذي كانوا يتواجدون فيه، وبدأ كل من الرجل الغريب وسعد بالتلويح لهم من أجل لفت انتباههم. أقبل إليهم صاحب القارب ليعرف ما الذي كان يجري، وخاطبهم قائلا:

-"كيف يمكنني مساعدتكم"

رد عليه الرجل الغريب قائلا:

-"لقد علقنا على هذه الجزيرة يا سيد، هل يمكنك أن توصلنا إلى المزرعة القريبة من هنا"

-"طبعا، يمكنكم الصعود على القارب"

عادوا على متن قارب لا يعرفون سيده من هو ولا أصله ولا أي شيء آخر، كان ذلك القارب كبيرا مقارنة مع القارب الذي أتوا به مع الرجل الغريب، وكان يتواجد عليه صاحبه ورجل آخر يمكن ان يكون أخاه، كما عرفوا بعد ذلك أنهم كانوا في رحلة صيد الأسماك ومروا على تلك الجزيرة من أجل تفقد أوضاعها، تحدث ذلك السيد:

-"لقد عشت على تلك الجزيرة مدة كما حدث معكم، لكن الاختلاف هو أنني لم أعلق عليها بل كنت أود الارتياح من العالم وتجديد نفسيتي من أجل اتخاذ قرار مهم في حياتي"

ودع سعد الجزيرة بين الحزن والفرح، سعيد للعودة الى المزرعة وحزين لفراقها رغم الأيام الصعبة التي قضاها برفقتها، لكن فرحه يتجاوز كل ذلك، خاصة أنه لم يتبقى له سوى القليل لإتمام كتاب السعادة وذلك يعني أنه قد حقق حلمه وأصبح سعيدا في حياته، غير ذلك فهو سيعود إلى شقة "سعادة للإيجار" وإلى عمله المفضل ليتابع قضاياه، وليحرر الناس من الظلم، وسيعود إلى أصدقائه وخاصة صديقه المقرب جان.

توقف سعد مرة أخرى ليدخل في أعماق البحر وليستنشق من هوائه المنعش وليستأجر السعادة منه، لتدق مسامعه أصوات الرياح ممزوجة بأصوات طيور البجع الذي يجده في كل مكان يذهب إليه، ليرفرف بجناحيه ناشرا السعادة في قلب كل حزين ومهموم، ليجدوا أنفسهم في حضن السعادة لا يهمهم العالم... إنها لحظات قليلة وسينتهي هذا الحلم الذي

يعيش فيه ليعود إلى المزرعة ناسيا الجزيرة والبحر، ليتطلع إلى أيام جديدة تملؤها السعادة والرفاهية، ولتنتهي بدورها هذه الأيام ليعود إلى نقطة البداية وهي شقة "سعادة للإيجار"، ليعيش نفس الأحداث وبانتظار المفاجآت التي ستحدث له...

-"ها قد وصلنا"

قالها السيد الذي يقود القارب وهو يشير الى المزرعة بيديه الاثنتين، ردت عليه العجوز قائلة:

-"شكرا لك يا بني، جزاك الله خيرا لقد أنقذتنا من مصيبة كبيرة، أسعدك الله كما أسعدتنا"

رد عليها ذلك السيد بغرابة كبيرة:

-"هل أنت الخالة حليمة"

-"نعم إنها أنا، لماذا تسأل؟"

-"لقد أتيت إلى هنا مرة مع أمي رحمها الله من أجل زيارتك، كنت صغيرا جدا ولذلك لم أتذكرك في البداية"

-"ما اسم أمك يا بني"

-"اسمها فاطمة، أخبرتني مرة أنك كنت جارتها في قرية لا أتذكر اسمها"

-"آآآه نعم لقد تذكرتها كانت سيدة رائعة رحمها الله، كنا جيرانا في قرية التجار، لقد قضينا طفولتنا معا"

-"يا لها من صدفة، لقد وددت كثيرا زيارتكم لكن للأسف لم أتذكر المكان"

-"اذن تعالى لأستضيفك شيئا ما دمت هنا"

أقبلوا جميعا الى المزرعة والتي كانت في نفس الحالة التي كانت عليها قبل ذهابهم في رحلة صيد الأسماك، تحدث سعد:

-"سبحان الله كل شيء في مكانه كما تركناه ذلك اليوم"

أجابته العجوز:

-"نعم صحيح كم اشتقت الى مزرعتي"

استضافت العجوز لذلك السيد الذي أخبرهم أن اسمه هو محمد شايا أخضرا ساخنا يناسب جو المزرعة المبللة

بالمطر، كان محمد ممتناً للعجوز وقدم لها الشكر الجزيل لكل ما قدمته لامه، وقال:

-"قبل أن تموت أمي أخبرتني بأن آتي إليك، لكنني لسوء الحظ لم أتذكر الطريق، لكن اليوم التقينا صدفة"

-"كنت أنتظر مجيئك منذ أن علمت بأن أمك قد ماتت، ولطالما بحثت عنك، لكن لم أفلح في ذلك، وها القدر قد جمعنا صدفة كما قلت"

-"كنت أنتظر هذه اللحظة منذ زمن، لكنني اليوم لا أستطيع البقاء هنا أكثر، وأعدك أنني سأعود في أقرب وقت"

-"حسنا يا بني رافقتك السلامة، أنا في انتظارك"

ودع محمد العجوز ودع كذلك سعد والرجل الغريب متمنيا زيارتهم في القريب العاجل، كما ودعهم كذلك الرجل الغريب ليعود إلى ضيعته الصغيرة والتي تتواجد قرب ضيعة المتسولين.

قال سعد متسائلا:

-"خالتي من أين تعرفين هذا الرجل الغريب"

-"لقد التقيته صدفة في ضيعة المتسولين. في ذلك اليوم الذي كنت مريضة واشتد علي المرض هناك، عندها أسرع إلى مساعدتي، وبقيت على تواصل دائم معه، كلما ذهبت إلى ضيعة المتسولين التقي معه، وأنا كنت بحاجة ماسة إلى شخص يساعدني، ووجدته"

-"في الحقيقة أتساءل عن اسمه فمنذ اليوم الأول أناديه بالرجل الغريب"

-"وأنا أيضا كنت أناديه بهذا الاسم إلى أن أخبرني يوما عن قصته"

-"ما هي قصته"

-"إنه لا يعرف أبويه، منذ أن بدأ يتذكر وجد نفسه في دار الأيتام، ولذلك تجده يعتمد على نفسه في كل الأمور، وعندما بلغ عمره ستة عشر سنة أخذته عائلة طيبة تسكن قرب ضيعة المتسولين"

أضافت:

-"قبل السادسة عشر من عمره لم يكن له اسم، حتى انظم إلى تلك العائلة وأطلقوا عليه اسم جود"

تألم سعد لقصة الرجل الغريب والذي عرف اسمه مؤخراً، وأدرك أخيرا بأن ما عاشه لم يكن بتلك البشاعة التي كان يتصورها، وها قد أصبح الآن سعيدا في حياته، ونستطيع أن نقول بأن السعادة قد عانقت حياته خلال مجموعة من التجارب التي قضاها برفقة العجوز، ومجموعة من القصص اكتشفها بعد مدة ليدرك بأن كل إنسان له مشاكله الخاصة، لكن هناك شيء اسمه السعادة المطلقة، وهي أن تكون سعيداً رغم المشاكل الصغيرة التي تستطيع ان تدخل إلى حياتك فترة وتذهب بعد ذلك...

إنها إحدى الليالي الأكثر هدوء، حيث ينير القمر كل المزرعة بنوره الفضي، يجلس سعد قرب الواد الذي يعج بطيور البجع والتي تشكل أجمل الألحان مع أصوات مجموعة من الأحجار المتلألئة المربوطة مع المرجوحة،

إنها أيام قليلة وسينتهي من كتاب السعادة وهو يقترب من العودة الى الشقة برفقة السعادة...

-"ما الذي تفعله هنا يا سعد، الجو بارد لما لا تدخل إلى الداخل"

-"في الحقيقة أحببت المكان رغم برودته، لم أستمتع به في الأيام الماضية"

-"صحيح، فالمكان يكون أجمل في الليالي الصيفية، لكن لا بأس بذلك سأذهب لإحضار الشاي الساخن من أجل تدفئة أنفسنا"

ذهبت العجوز لإحضار الشاي وسعد يقرأ كتاب السعادة مع التركيز التام لكل عبارة يلفظ بها وكل جملة أو كلمة لفهم مضمونه أو بالأحرى لمعرفة معنى السعادة. أقبلت العجوز بكأسين من الشاي.

-"تفضل الشاي قبل أن يبرد"

-"شكرا لك خالتي"

-"هل تعرف يا بني بأن هذه الأيام ستنتهي، أنت ستعانق حياة جديدة تملؤها السعادة، وأما أنا سأعود إلى حياتي السابقة... إلى الوحدة"

قبل أن تنتهي العجوز من جملتها بدأت الدموع بالسير على خديها المليئة بالتجاعيد، أخرجت منديلا وبدأت تمسحها بلطف، ثم أضافت:

-"لقد تعودت عليك وكأنك ابني، وتأقلمت مع العيش معك، لا أعرف ما الذي سأفعله حين ستغادر المزرعة، لكن يجب أن تعرف بأنني سعيدة لوصولك إلى هنا، أنت الآن سعيد في حياتك، وخلال الأسبوع القادم ستكون قد انتهيت من كتاب السعادة"

تأثر سعد لحديث العجوز حتى وجد نفسه يمسح دموعه حزنا على وحدانيتها، خاطبها قائلا:

-"لا تخافي فأنا سأزورك حتى وإن ذهبت من هنا، فأنت بمثابة أمي ساعدتني في أكثر الأوقات كنت فيها محتاجا لدعم

من أحد، وكذلك لا أستطيع نسيان الشيخ يوسف أنجول الذي أهداني جرعة السعادة، والتي بفضلها تعرفت عليك"

كانت هذه من أكثر اللحظات حزناً بين سعد والعجوز، حيث كان كل واحد منهم يتمنى من الآخر البقاء معه طيلة العمر، وللأسف لا يمكن ذلك... لحظات تذكر فيها سعد كل الأيام التي قضاها مع العجوز سواء في المزرعة أو على الجزيرة المهجورة، عندما كانوا يفطرون معا في الغابة على العشب الأخضر، وعندما ذهب معها إلى قرية المتسولين، وفي رحلة لصيد الأسماك والتي انتهت بأكبر كابوس مزعج واجهه سعد بعد شقة "سعادة للإيجار".

حان موعد النوم ليذهب سعد إلى سريره بعد ما فارقه مدة طويلة، حيث اشتاق إلى النوم المريح على الوسادة الحريرية والغطاء المصنوع من القطن يدفئه من برد الشتاء، لم يشعر بأي شيء سوى رائحة الخبر الساخن تخترق أنفه دون اذن، ليأتيه شريط الذكريات لأيامه الأولى في المزرعة.

-"صباح الخير سعد"

-"صباح الخير خالتي، تبدوا شهية"

يتحدث سعد وهو ينظر إلى الطاولة الموجودة في البهو الصغير المجهزة بكل أنواع الطعام.

-"لقد جهزت كل هذا من أجلك يا بني، فلقد اشتقت إلى الطعام اللذيذ خاصتي"

ضحكت العجوز ضحكة لطيفة على كلامها ثم تابعت:

-"ستشتاق إلى طعامي حين ستعود إلى الشقة، أخبرني إذا كنت تريد القليل منه لأجهزه لك خلال الرحلة"

-"طبعا لن أرفضه خالتي، فطعامك لا يقاوم، منذ أن أتيت إلى هنا لاحظت أن وزني قد ازداد"

-"يسعدني هذا يا صغيري"

... ومرت الأيام في لمح البصر لينتهي سعد من كتاب السعادة، ويحين وقت الوداع والفراق ليودع سعد المزرعة والعجوز، إنها اللحظة المنتظرة منذ عام، مند اليوم الأول لسعد في شقة "سعادة للإيجار" وهو يسعى للحصول على

السعادة... السعادة التي فقدها منذ حولي ست سنوات، عند وفاة أبويه في حادث سير، لينتهي به الأمر للعمل في مستشفى الأمراض العقلية، لكنه بفضل شقة "سعادة للإيجار" وبفضل مفاجآتها الدائمة، والشيخ يوسف أنجول وجرعة السعادة ولينتهي في الأخير عند هذه المزرعة مع أطيب عجوز ليحصل في النهاية على السعادة، إنها لحظة سيخلدها التاريخ في أذهان العالم بأن شقة "سعادة للإيجار" التي كانوا يستهزئون بها أعطت لسعد ما تمناه وعانقت السعادة حياته من جديد لكن بقوة أكبر...

في بحر من الدموع ودع سعد العجوز وقبل يدها وشكرها على كل مجهود بذلته من أجله وكل وجبة قدمتها له وعلى كل كلمة طيبة قالتها له.

تحدثت العجوز بصوت غير واضح بسبب الدموع المتراكمة في عينيها:

-"يا صغيري يجب عليك أن تعرف بانك لم تعد محتاجا لشقة "سعادة للإيجار"، لأنك حصلت على السعادة التي كنت

تريدها، اذهب واستأجر شقة صغيرة لتعيش فيها بقية حياتك"

عاد سعد إلى شقة "سعادة للإيجار" ليودعها ويشكرها على السعادة التي أهدتها له رغم حديث العجوز، كانت الرحلة طويلة وشاقة، وقبل أن يصل إلى الشقة ذهب في زيارة إلى قبر الشيخ يوسف أنجول ليدفن كتاب السعادة بالقرب منه كشكر على مجهوده، عند وصوله إلى قلب المدينة التي يتواجد فيه المبنى القديم ذهب باتجاه مشفى الأمراض العقلية التي كان مساعدا فيها في يوم من الأيام، لا لأي شيء، فقط ليسأل عن أخبار المريض مصطفى، لكن المفاجأة أنه كان قد خرج من هناك منذ زمن، فقد تعافى ولم يعد مجنونا، فرح سعد بهذا الخبر، فكم هو جميل هذا الشعور، أن يعود للإنسان عقله بعد أن فقده... عند وصوله إلى المبنى القديم تفاجأ من المنظر الذي رآه، هل تعرفون ما الذي حدث للمبنى؟ طبعا لا يمكنكم أن تصوروا ذلك...

أحس سعد بشعور غريب كأنه تخلص من ذلك السجن، ومن كل الوحدة التي سكنت ذلك المبنى المهجور، ومن اللحظات

الحزينة والموحشة التي قضاها فيه... لقد اختفى المبني، ولم تعد هناك شقة اسمها "سعادة للإيجار"، ودعها في صمت وذهب لاستئجار شقة أحلامه، وعاش السعادة المطلقة التي تمناها منذ زمن في شقته الجديدة ومهنة أحلامه وهي المحاماة.

الأحلام يمكن لها أن تتحقق إن آمنت بها...

النهاية؟

شكـر خـاص

نتقدم بهذا الشكر في البداية لهذا الإله العظيم، الذي بفضله استطعنا أن نحقق هذا الإنجاز... أن أحقق حلمي في كتابة أول رواية لي بعنوان "سعادة للإيجار". ثم أتقدم بهذا الشكر لعائلتي المحترمة على تشجيعها الدائم لي، ولكل واحد كان له الفضل علي سواء من قريب أو بعيد، ولكل من قدم لي يد المساعدة في يوم من الأيام، ولكل الأصدقاء الذين يحترمون أنفسهم ويحترمون الآخرين.